قارئة الفنجان

قصص قصيرة

عفاف علي

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد

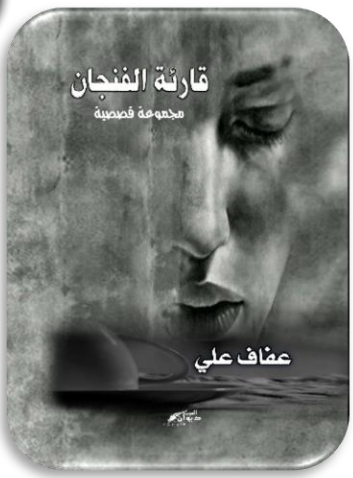

اسم العمل : قارئة الفنجان

اسم المؤلف : عفاف علي

الجنسية : مصر

التصنيف الأدبي : قصص قصيرة

الطبعة الأولى : ٢٠١٩

الترقيم الدولي : ٧ – ٠٦ - ٦٧٩٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨

رقم الإيداع : ٢٨٥٩٨ / ٢٠١٩

تدقيق لغوي : حمدالله أبو الحسن

تصميم الغلاف : محمد وجيه

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : ٠٠٢٠١٢١١١٣٢٨٧٩

محتويات الكتاب	
الإهداء	٥
المقدمة	٦
فريسة	٧
هلاك شاعرة	١٠
قلب مسجون	١٤
أشباح الموت	١٨
خيانة	٢٠
العيد يكون هو	٢٤
ليلة الوداع	٢٦
ظلال	٢٧
دموع الفقر	٢٨
العجوز	٢٩
فتاة وحيدة	٣١
لحظة وداع	٣٢
على شاطئ الفرات	٣٧
يده ولكنها غريبة	٣٩
ثعبان ولكنها امرأة	٤٥

الصمت	٤٦
قلب صامت	٤٩
جارتي الجميلة	٥٣
مازال في العمر بقية	٦٥
حلم رفض أن يتحقق	٦٧
ضحايا القلب	٦٩
وردة بلا ساق	٧٣
فتاة الخشب	٨٥
الشمس	٨٨
السقوط في الهاوية	٩٠
صديقي	٩٣
سهام ودار الأيتام	٩٦
حبُ مريض	١٠١
هي والأشباح والعيد	١٠٤
تزوجت قاتلة	١٠٨
لماذا ماتت ...؟	١١٥
امرأة قررت الانتحار	١١٨

الإهداء

إلى ذلك القلب الذي قرر أن يساعدني بدون سابق معرفة، إلى ذلك القلم الشاهق فى مرتفعات الإنسانية، إلي أديب منح حروفي اهتمامه ورعايته. أهدي أنا عفاف علي كتابي هذا إلى الأديب الفلسطيني الأستاذ حمدالله أبو الحسن.

عفاف علي

****

مـــقـدّمـــة

قارئة الفنجان كتاب يحتوي على قصص أدبية قصيرة، كتبتها المؤلفة من خلال تجارب ومعاناة الاخرين، واستوحتها من خلال قصص حب باءت بالفشل، وانتهت بأن تفقد معنى الحب والسلام في حياتها، لم تجد في عالمها المادي قيمة للحب والعطاء، فقد أصبح الحب ماديا لا إحساس ومشاعر، هنا نسجت المؤلفة كتابها من وحي تلك التجارب المرة التي عاشتها بخيالها قبل عقلها لتخرج لنا بتلك التوعية الفكرية للشباب.

****

فريسة

تحمل فى يدها حقيبة جلد سوداء، تسير في وسط الطريق، تبحث عن فريسة جديدة؛ تبيع لها الأحلام. من بعيد عجوز قادم تظهرعليه ملامح العظمة والبهاء، تقف تزين شفتيها بالكلام، تسأله: هل تريد أن تعرف حظك اليوم؟ يدعوها لتناول كوب من القهوة، يسترسل فى الكلام، يقص لها كل الحوار، تمسك فنجانه الفارغ، تتمتم بعض الكلام، تنظر إليه بمكر ودهاء كأن الفنجان أخبرها بالمراد.

تقول له: لماذا لا تنام ليلا؟ تبكي مثل الأطفال! أدهشه السؤال. هبّ واقفا وسار إلى الأمام، خرج هائما على وجهه، كيف عرفت أني لا أنام؟ وأن وحدتي تقتلني فأبكي كى أنام! من هذه المرأة؟ سأعود غدا لأعرف من هي؟ يتركها خلفه بعد أن دفع الكثيرمن المال منطلقا إلى عمله الكثير وأمواله.

تقف فى منتصف الطريق تنتظر القادم البعيد، تمرعليها فتاة جميلة ذات قوام رشيق-تدعى نورهان-تهمس لها ما الأخبار؟ تنظر إليها الفتاة مبتسمة تقول: كله تمام. تمرالفتاة وتعود قارئة الفنجان إلى بيتها، تسمع صوت

جارها يبكي ولا يستطيع النوم. تتناول قليلا من الماء ثم تخلد للنوم.

تشرق عليها الشمس كل يوم وهي تقف في منتصف الطريق، تبيع الأحلام وتجني الكثيرمن المال. لقد جاء الصباح وخرج العجوز من قصره هائما على وجهه يبحث عن قارئة الفنجان، يجدها فى منتصف الطريق تقف بلا حراك، كأنها تنتظره من ساعة الإفتراق، سألها: من أنت يافتاة؟ قالت: أنا قارئة الفنجان. هل تريد أن تعرف حظك اليوم؟

وعزمها على الغداء، تناولت ما لذ وطاب من الأكل والفاكهة، كأنها لم تأكل منذ عام. سرد لها حكايته بكل تفاصيلها، لكنها لا تبدي أي اهتمام، غير أنها تتناول الطعام، وعندما انتهى من فنجان قهوته، أمسكت الفنجان، ونظرت إليه بحزن وقالت: لماذا كنت فى حبها جبان؟ لماذا لم تخبرها أنك تحبها حتى ولو كان الفرق بينكما ألف عام؟

ظهرت على ملامح وجهه الحزن والهيام، وقال: كيف عرفت أنني أعيش قصة غرام. أجابته: من الفنجان. وقف

غاضبا منها ومن الأحوال، واتهمها بالكذب والبهتان، فهو رجل لا يعرف للحب عنوانا.

وفي لحظة يتحول لمراهق خجول عندما تعبرمن أمامه ذات القوام؛ ينبض قلبه، تتلاقى العينان كأن بينهما سر لا تعرفه إلا قارئة الفنجان. يعود العجوز يردد أنا لا أعرف للحب عنوان، هيا ابتعدي عني؛ فأنا لم أحب امرأة يوما غير نور...

****

هلاك شاعرة

تجلس تحت شجرة جفت أغصانها من الحياة، لكن هناك غصن أخضر، يزرع فيها أملا بالحياة مرة أخرى، عجوز في مقتبل الخمسين، تجلس بلا مأوى بلا حب، كتبت على الأرض بالورد الأحمر أبيات عشق وعتاب، لقد دفعني لها الحنين إلى كلمة أمي، أمسكت بقلمي وقراطيس كتبي، ووقفت بجوارها، رفعت عينيها نحوي وابتسمت وقالت: كاتبة أم شاعرة؟ أجبت بسرعة متطفلة، قهقهت كثيرا وبسطت يدها لي وأجلستني بجوارها، كنت أنا بطلة قصيدتها ولم تكن هي بطلة قصتي، تهتف بصوت مرتفع أنا فيروز هل سمعت عن فيروز من قبل؟ كنت مثلك طائر في عالم الحروف والكلمات، عزفت أبيات شعر من منطلق الآهات، لكن هذا الطائر أبوه مات، فسجنته العادات والتقاليد، في بيت أبي عشت خادمة أخدم لأحصل على الطعام، لم تر أمي في كلماتي عزف حزني وأنين صمتي، تزوجت هروبا من الظلم، تزوجت برجل أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، كنت الزوجة المغلوبة على أمرها، أنجبت ولدا وبنتين، كانت قلوبهم كالحجارة أو أشد

قسوة، لقد شاهدوا عـذابي على يـد أبـيهم الذي يتفـنن في ضربي، بل كان يروقه منظر الدماء على وجهي، كنت أصرخ بصمت: إلى أين أذهب؟

كل الطـرق أغلقـت إلا الطريـق إلى الله، كنـت أشـتاق لحضن أروي به صحراء وحدتي، حتى قـرر زوجي المحـترم أن يعفو عني ليتزوج من ضحية أخرى تحتمل عذابه، لقد طلقني وتركني أنا وأولاده في بيته، لكـن ولدي الذي هـو فلذة كبدي ضربني وألقى بي فى الشارع أنا وبنـاتي، وقـال: إنها شقته هو فقط، نهضت من شدة غضبي كيف؟ كيف يفعل بك هذا؟ كدت أن أسبه وادعو عليه أمامها، لكنها دعت له بالهداية، لم أسـتطيع تحمـل المزيـد مـن قصـتها، فطلبت منها أن أحضنها، فضحكت واحتضنتني، فى يدها ورقة تكتب فيها قصيدة عن عيد الأم، استهوتني جملـة كتبتها في إحدى أبياتها (ومن لي غيرك يـا أمي) فبكيـت بدموع القهر، كنت أتمنى أن تكـون مـعي أمي، مسـحت بيدها على خدي، وقالت لي: أنا هنا بنيتي، أجبتها نعم أنت هنا ولديك بنتين، قالت: سأكمل لك لقد ذهبت إلى بيت أبي، وجلست مع أمي مرة أخرى.

عدت خادمة لهم من جديد، لقد كرهت نفسي وقررت الاستقلال، خرجت أعمل وأجتهد في الحياة، وسكنت بعيدا عن أهلي، لكن ابنتي كانت تضربني إذا لم تجد مالا، ولطيبتي وقلة حيلتي لم أستطع السيطرة عليها، فقررت الهروب بعيدا عن الحياة قررت الذهاب لدار المسنين، أرعاهم وأخدمهم، حتى يحين وقت إنتهاء الأجل، لقد صمتت ولكن الدموع فى عينيها، تروي ألف قصة وجع، هي امرأة كسرها الجميع، الأم والأخ، الزوج والولد، الأخت والبنت، لقد استغلوا ضعفها، وحطموا قلبها، وفجأة صعقتني بقولها: لكنني أحب! تحبين! أنت بعد كل هذه الخيبات والإنكسارات عدت تحبين؟ قهقهت وارتسمت على ملامح وجهها الصغير شغف الحب، وعذابه.

قالت: فى وسط أمواج الظلام أرسل الله لي رجلا عطوفا محبا، طلبني للزواج، فأسرعت بالموافقة، لم أعد أفكر لقد أحببته بكل كياني، وأنت تعرفين أننا كنساء لا نحب إلا مرة واحدة فى عمرنا كله، اهتز كوب القهوة من يدي، فأنا لا أؤمن بوجود الحب فى هذا المجتمع، هي لم تع التجربة، عن أي حب تتحدثين عنه يا أمي، في عالمنا الحب لمن يملك المال والجاه والسلطان، الحب لامرأة جميلة تخطف

الأنظار، الحب شبكة لذئب قرر أن يصطاد، الحـب كذبـة أخترعها الرجال للإيقاع بالنساء، فبرغم أنك تحطمت على صخرة الحب، ما زلت تؤمنين به! وعدتني أن تعـرفني على زوجهـا الذي قـرر أن يـنهي قصـص العـذاب فى حياتهـا، ويعيد لها تلك البسمة المشنوقة على شـفتيها، وتبـدأ مـن جديد تكتب قصائد الحب والغرام، فقـررت أن أعطيهـا نصيحة فقلت لها بكبرياء:

احذري من غـدر الرجـال، لكنهـا انطلقـت تشـق بحبهـا الظلام، فإلى أي الطرق يقودك هذا الحب اللعين ...

****

قلب مسجون

قمر تلك الصغيرة الريفية الجميلة تعشق العمل، تعودت أن تأكل مما تصنع، رفضت أن تخضع لتقاليد المجتمع، حاربت بقوة، تمسكت بقلبها أو سجنته، أخضعت قلبها خلف قضبان الوحدة، وحدة مظلمة، لا تعرف معنى الأمان أو الإحساس بالدفء، عندما تجلس مع فلاحات القرية كانوا يتحدثون عن الحب؛ الذى يشبع قلوبهن، أما هي فلا تنطق لفظ الحب أصلا، لأنها ببساطة لا تؤمن به، فهو مضيعة للوقت، كانوا يظنون أنها قاسية جافة كشجرة يابسة، لن تخضع حتى لو روتها دموع النهر، والعكس كان صحيحا، فبداخلها رقة متناهية، قلب أخضر صغير، يتمنى الخروج للحياة، ولكن هيهات!

لقد كانت مقتنعة تماما؛ أنها ستهلك إن أخرجت هذا القلب من مكانه، لإنها فقيرة ومن سيبحث أو يهتم بفتاة فقيرة، وذات مساء فى ليلة مقمرة، ظهر انعكاس لشخص على ضفة النهر الصغير؛ يسير خلفها، فظنت أنه رجل، أسرعت الخطوات لبيتها، لم تلتفت خلفها ولو بنظرة من باب الفضول، لأنها واثقة برجولتها المصطنعة.

وفي الصباح خرجت للعمل في الحقـول كالعـادة، أحسـت بيد حانية تمد لها طعاما، نظرت إلى تلك اليـد، فوجـدتها لرجل طاعن في السـن، تناولـت منـه الطعـام؛ وهى تـردد كلمات الشكر والعرفان له، لأول مرة تقول لشخص شكرا بصوت المرأة المكسورة، لأنها منذ زمـن، قـررت أن تقـدم المساعدة لنفسها فقط، أحست أن هذا الشيخ مـا هـو إلا مـن المحسـنين المتصـدقين على الفقـراء، وانـتهى اليـوم ورجعت لبيتها بعد عناء ومشقة؛ لتنام بثبات عميق ليوم آخر من المشقة ولقمة العيش.

أشرقت الشـمس، واسـتيقظت العصـافير وخرجـت قمـر للعمل تبحث عن عمل جديد يكفيها شر الحاجـة وشر الناس التي قلوبها مريضـة، فلـم تجـد عمـل، لقـد انـتهى موسم الحصاد. ماذا تفعل؟ ومن أين سـتأكل؟ وهي تسـير على ضفة النهر الصـغير، شـعرت بمـن يلاحـق خطواتهـا، فأسرعت السير، غير أنها انتبهت على صوت ينـادي: قمـر قمر! نظرت فوجـدت ذلـك الشـيخ مـرة أخـرى، وفى يـده كيس طعام، فأجابته بحياء! نعم نعم. أهـلا ابنـتي إلى أيـن تسيرين؟ لا أعلم يا عماه، لكنني أبحـث عـن عمـل، ولـم أجـد أي عمـل حـتى الآن؛ قـد انـتهى موسـم الحصـاد.

ابتسم لها ابتسامة عذبة، تعالي ياقمر، فعندي لك عمل بأجر جيد. ضحكت بصوت حزين شجي، أطربت العصافير حولها، خرجت تغني العصافير على ضحكاتها. ذهبت مسرعة معه إلى محل صغير جدا، لبيع ملابس نسائية بسيطة، لم تهتم بشكل الدكان وقيمة الملا بس، كما اهتمت بأنها ستأكل بالحلال. استمرت أسبوعين تجهز وتنظف وتبيع وتعمل بجد واجتهاد.

كان ينزل الشيخ صباحا؛ حاملا كيس طعام؛ لتفطر معه، وفى المساء يعطيها كيس طعام، كانت تخبر نفسها أنه شيخ عظيم، وأب حنون عليها، وما يظهره لها من عطف وحب مجرد شفقة وعطف على يتيمة فقيرة.

استمرت الحال هكذا عاما كاملا. وفي إحدى المرات طلب الشيخ من قمر طلبا غريبا. لقد طلب يدها للزواج، واعترف لها بحبه الشديد لها. حاولت أن ترفض دون أن تجرحه، وأن تمتنع عن العمل عنده ولكن بلا فائدة. كان يلاحقها فى كل مكان، يتودد إليها بأساليب مختلفة. وفى لحظة غضب قالت له: إنها لا تعرف معنى الحب، ولا تريده أن يحبها، وأن قلبها سجين ذلك الصدر، فلا تحاول

إخراجه، لكيلا يحرق كل شيئ، وأنت رجل متزوج ولديك خمس أبناء وطلبت منه الابتعاد.

رحل واستجاب لطلبها، فابتعد عنها لمدة أسبوع واحد، لقد تعلقت به، تتذكر كلماته وطيبته معها، رقته وخوفه عليها، لم تتحمل الإبتعاد عنه، وقررت أن تذهب إليه، الغريب أنها رأته أمامها، بعيون يملؤها الشجن وطيبة ممزوجة بالحنين. سألها: عن أخبارها وعن أحوالها، فأجابته: بابتسامة إنها بخير، فتجرأ وسأل: عن أحوال ذلك السجين الذي يسجنه صدرها، فقالت: قررت أن احرره؛ ليطير عاليا فى فضاء السعادة، ولكن من حرره من سجنه هل سيلحق به؟ أم سيعود بعد خيبة أمل؟ وهنا ساد الصمت وتكلم القدر فماذا قال...

****

أشباح الموت

تلك الشجرة الكبيرة في حديقتنا، يسكن بداخلها شاب جميل، عندما اتسلق فروعها، يجذبني من شعري، ويحملني بين يديه، يخشى وقوعي على الأرض، هو دائما يقطف لي التوت والورد، ويهديني كل ما أتمنى، ويرسم اسمي على الشجرة، ويسهر معي في الليل حتى لا أشعر بالوحدة، وعندما تظهر الشمس يعود لشجرته ويختفي؛ ولكن أمي تقول: أنني مريضة وأرى أوهاما، ويجب على أن أسمع كلامها، ولا أخبر أحدا به، لكيلا يتهمونني بالجنون. لكنه يبكي دائما، ويطلب مني الرحيل معه لعالمه الجميل، يقول: أنني سأجد الهدوء والسكون، ولن يزعجنا أحد هناك، ولن أتناول الدواء مرة آخرى، وسوف نأكل معا أشهى المأكولات التي لا تجهزها لي أمي، بسبب مرضي اللعين، والغريب أنه يريدني أن أدخل معه الشجرة، لكيلا تراني أمي ونحن نأكل الحلوى، هو دائما يبكي، سأذهب معه غدا مع شروق الشمس، وندخل معا إلى باطن الشجرة. وعندما أخبرت أمي: أنني سأرحل داخل الشجرة صرخت؛

ونزعت الشجرة من جذورها، واحتضنتني بقـوة، ورحلنـا لبيت جديد بلا شجر، ولكن للآن هو مازال يبكي...

****

خيانة

ارتدت فستان زفافها الأبيض الساطع، وضعت خاتمها الذهبي، تأبطت ذراع زوجها بحنان، عبرت أمامي تتهادى ببهاء جمالها، فاهتز قلبي لحبها القديم فى الماضي القريب، وصرخ ضميري وسط سجنه، وصاح لساني بصوت عال: إنها شيطان وليست امرأة. نظر الجميع لي فى دهشة وحيرة؛ فأنا ابن عمها وصديق العريس، وهي صديقة الطفولة، وعدوة قلبي، نظرت لي بنظرات ساخرة كأنني لا شئ؛ كأن قلبي الذي مزقته لعبة كانت تتسلى بها؛ حتى يأتي حبها الحقيقي، صرخت بعزم وقوة: سمر سمر لا مفر هنا! لقد بانت حقيقتك الكاذبة. لن تهربي وبداخلك روحي وقلبي؛ صفعني أبي؛ وهو ينظر لعمي، وأخرجني من الحفلة يسحلني؛ بينما احتضنتني أمي، وهي تبكي على حالي، فما كان من صديق طفولتي إلا الأتصال بمستشفي للأمراض العقلية، واتهمني بالجنون، وأنني أحاول قتله وقتل زوجته؛ كنت أصرخ من شدة الألم فى قلبي، وليس من عذاب الكهرباء التى يعالجونني بها؛ فعمي هو صاحب هذه المستشفى.

في ليلة مظلمة وجدت شمعة فأشعلتها أمامي، ورسمت سجن وأجلست سمر بداخله؛ ووضعت أبي وأمي وعمي وزوجته شهود. لقد حان وقت حسابها، وضعت قلبي قاضيا لها، ووقفت أنظر إليها نظرة رجل أراد الحب، أنا سامر حسن ابن رجل بسيط يعمل عند أخيه فى شركته، كبرت على يد عمي، كان الآمر الناهي، أول أمر له أن أهتم بسمر ابنته الوحيدة، ووعدني أنها ستكون أميرتي وحبيبتي وزوجتي فى المستقبل، وعلى أن أحافظ عليها، كنت أنا أكبر منها بخمسة أعوام، وكانت هى طفلة تشبه عرائس العيد، لعبة بيضاء ذات عيون زرقاء، كانت عندما تبكي أحملها في حضني تسكن وتهدأ، لا أنام إلا عندما تنام، لا أتذكر أنني صفعتها أو تجرأت على إغضابها، كبرنا معا. سمر حبيبتي هل تذكرين حين أخبرتيني بأنك كبرت وتريدين هدية عيد الحب كالبنات زميلاتك؟ ماذا فعلت أنا حينها؟ لقد جمعت مصروفي لمدة شهر وجلبت لك ورودا ودب والكثير من الشوكولاته، لقد قبلتيني ليلتها متحججة بفرحتك، كنت سعيدا وقتها فقد لامست النجوم، وعندما أردت السفر كنت معك ، سمر هل تذكرين أول كذبة لك عندما كذبت على أبيك، وقلت

أنني من أجبرك على الهروب من المدرسة، بينما أنت كنت تمرحين مع صديقاتك، كان أبوك يعاقبني بالضرب أمام والدي، رأيت يومها دموع أمي، لقد ضحيت بالكثير سمر من أجلك ياعشقي، هل تذكرين حين وقفنا تحت المطر وأنت مبسوطة وتقولين لي أحبك سامر، حينها نزعت معطفي وجعلته مظلة لك لأحميك يا حبة القلب، كنت مغرما ولهيب الحب أنساني مرضي بالربو، كنت لا أخشى على نفسي؛ يكفيني رؤيتك سعيدة، فمرضت أنا، وجلست شهرا فى المستشفي أعاني من المرض، وأنت كنت تمرحين كل ليلة مع صديقي ماهر، وحين أسألك عن بعدك عني، تجيبين بأنني زوجك وحبيبك، سمر أنت كاذبة كنت تخدعينني من البداية، سمر أنت كنت تنتظرين حتى يجد عملا لائقا بمستوى والدك، فيحقق لك أحلامك، ويقبل به أبوك، ولقد قبله أبوكِ، ووافق على زواجك منه، بعد تهديدك بالإنتحار، لقد سحب وعده الذى أعطاه لي منذ عشرين عاما، هنا اعترض القاضي وصرخ؛ أنا قلبك سامر قلبك الذى قتلته، أحكم عليك بالعذاب الأبدي، لقد كنت أعمى وتقودك أفعي، كما

أحكم على أبيك وأمك بـأن يشـاهدوا عـذابك بصـمت؛ لأنك كنت ثمن عيشتهم فى الثراء، لا أدر كيـف سـقطت الشمعة؟ وأشعلت المحكمة، واحترق الجميع بما فيهم أنا...

****

العيد يكون هو

إنه يعود مع العيد، يختفي طول العام متحججا بظروفه المعيشية، ثم يبزغ مع فجر العيد، لا أعلم أي علاقة تربطهم ببعض، غير كونهم شيئ واحد بالنسبة لها، يهملها ويهمل مشاعرها دائما، لكن برجوعه على العيد، يسبقها الشوق له، ولكنها هذا العام تمردت عليه، لقد كبرت ولن تهتم بعودته بعد الآن، ارتدت أجمل ثيابها، وأغلى حليها، خرجت من بيتها توزع الإبتسامات على الأطفال وعجائز الحي، الكل متعجب كيف تخرجين اليوم؟ تجيبهم جميعا: نعم سأخرج إلى الأهل والأقارب، سأتركه في البيت وحيدا ذليلا، طول العام أحمله في يدي، طول العام أنتظر رسالة منه، جعلني أعشق هاتفي كأنه ابني، واشترى منه كل جديد ومتطور، ظنت إنها بخير وتستطيع التمرد.
لكن ما حدث لاحقا قتلها، ففي أثناء سيرها توقفت ولم تكمل الطريق، لم تستطيع التحرك، أمرها قلبها بالعودة للبيت، رجعت تهرول من منتصف الطريق، وتصرخ: اليوم العيد اليوم العيد... تراه أرسل لي رسالة أم أرسل صورة تحمل اعتذارا وحبا لي! هل اشتاق لي ؟!

فتحت الباب لتجد هاتفها اختفى. لم تجده، أين هو؟ كان هنا! نعم تركته هنا، بعد عذاب وجدته في حقيبة يدها، لقد كان معها طيلة الوقت، لقد خرج معها، بلهفة المشتاق أخرجته، وفتحته بسرعة، وانتظرت انتظرت طويلا...

هو لم يعد هذا العيد، هو من تمرد على قلبها، لم يعد لأنه كذبة الحب، بكت نعم بكت وبمرارة هي بكت، بمرارة شوق امرأة ستنتظر للعيد القادم رسالة من محب... هناك بعيد يوجد عيد قادم نحو الغروب يستعد...

****

ليلة الوداع

الشمس في لحظة الغروب، والسحب الحمراء، تغطى السماء، يبدأ ضوء الشمس في الاختباء، حتى يصبح خافتا، ثم يلمع شعاع الشمس في الأفق البعيد، يقف الضوء على شاب وفتاة متعانقين، يصدر منهما صوت بكاء وشجن، بجوارهم رجل يحمل في يده آلة ناي، ويعزف لحنا حزينا، ينطفئ النهار وينتشر ظلام الليل الدامس، يبزغ ضوء الفجر، تقف الفتاة وحيدة، تبسط يدها في الهواء، وصوت أقدام تبتعد عنها مسرعة، ضربات قلبها تتراقص، كأن الفتاة طير مذبوح، وتسقط في مفترق الطريق، تدور حولها الأنظار، ويسطع ضوء الشمس على شعرها، تحاول أن تتماسك وتنهض من جديد، لتقف على قدميها وهى ترتعد، تنظر على ورقة في يدها مكتوب فيها (حبيبتي: غدا حفلة زفافي وهذه دعوة الحضور) تغطى الدماء الورقة، ويدوى صوت صراخها الحزين، لقد نزفت من جرح قلبها ما تبقى من الحب الأليم.

****

ظلال

نظرت من نافذة غرفتها، كأنها بدر ليلة الكمال، خطفت قلب جارها الشاب الوسيم، تبسم لها فلم تعره أي اهتمام، ظن أنها تتدلل عليه، وتظهر له كبرياء المرأة الجميلة، غامر بحياته من أجلها، واشترى باقة من الورود الجميلة؛ ليهديها لحبيبة قلبه، تسلق جدار بيته، واقترب منها بهدوء، ومد يده بالورود؛ فلم تستجب ولم تقبلها، وكأنها لا ترى الورود أساسا، انسحب من جوارها بصمت، فهو لا يفكر في الارتباط بزوجة كفيفة.

****

دموع الفقر

تخرج كل يـوم للعمـل في شركتـه، تنتظـر رؤيتـه، تسـألها نفسها: لماذا كل هذا العذاب؟ إنك تعلمين أنـه لا يعتـبرك حبيبته أو حتى صديقته، أنت عنـده مجـرد خادمـة، تعـد طعامه، وتغسلين قذارته، تدمع عيناها، تسير إلى العمـل، وتمر الأيام وتفوت، ويعاد كل يوم الحوار نفسه، ومن كثرة الأحزان عليهـا؛ أقنعـت نفسـها وقالـت: نعـم أنـا أكـون خادمته وأنـا راضـية بمكانـتي عنـده، لـكي أصـل لقلبـه، أصبحت خادمته المفضلة، ولن أتنازل عن ذلك، كل يـوم تقدم الغداء مع بسمتها، تصنع الطعام على نار جرحها، لم يلاحظ أي شيئ، غير أنها خادمة جيدة، تفعـل كل شـيئ بحب ومودة، ومن شدة شوقها لكلمة تـبرد لهيـب العشـق، أعترفت بحبهـا له ، لعلهـا تجـد الدواء، سـمعها جيـدا ثـم انصرف، وأرسل لها جواب الإستغناء عنها، فهو لا يريـدها في مكان عمله، أو بيته، ومع ذلك كان رجلا لطيفـا، فقـد أرسل مبلغ من المال لها، حملت قلبهـا ورحلـت، ولكـن دموع فقرها كانت في يديها، بجوار تلك الحقيبة الفارغـة، إلى أين تسير وهى بلا قلب ...

العجوز

فتاة جميلة تبكي في زاوية مظلمة، دموعها تلمع وتشع كأنها أقمار منحدرة من السماء، ضوء البدر قوي يلف فوقها في الغرفة، القصر الذى تعيش فيه فخم، ولكن لا حياة فيه رغم بهائه، الكثير من الخدم يعمل فيه، وصور الجميلات منتشرة في كل مكان، تسمع الفتاة صوت ضحكات متقطعة، فتصدر صوت بكاء حاد، وكاسات تطرقع بالمشروبات، وأقدام أطباء تسير هنا وهناك، طبيب شاب يبتعد ليصل لبهو القصر، يقف الطبيب على رجل مريض حوله مجموعة من كبار الأطباء، يصمت الجميع، وتقف أصوات الضحكات؛ ليبدأ عزف كلاسيكي حزين، وينطفئ ضوء البدر فجأة؛ ليشع نور تلك الفاتنة بدموعها المشعة، تمسك بيدها شمعة، تقترب من زوجها العجوز، هنا يهمس بشفاهه بكلمات الحب والغزل والغرام، تذرف الفاتنة قليلا من الدموع، تتغير ملامح وجهها، وتظهر النجوم، يشهق العجوز شهقته الأخيرة وينام للأبد، ضوء القمر يختفى عن وجه الفاتنة، تتمايل في

هدوء، ثم تبتسم وتقول: أخيرا أصبحت حرة، وسريعا تظهر عليها ملامح الأرملة الثرية ...

****

فتاة وحيدة

عيناها عسليتان، شعرها قصير. لأنها جميلة؛ تأبى عيناه أن يراها تكبر وتكبر، وإنها أصبحت فتاة شابة غيداء، وليست طفلة بضفائرها وشرائط شعرها الحمراء، يهمس لها دائما بصوت حاد، أمضغي الطعام جيدا، ولا تبصقي العصير على ملابسك، ولا يرى في يدها ملعقة وسكين، وأنها ترتدى أجمل الفساتين، تعانق يداه ذراعها عند العبور، وينتفض لمجرد التفكير في أنها يوما ما ستعبر الطريق بدونه، ترجوه وتقول: من الحب ما قتل فينا الحياة، تمردت هي على هذا الحب، وأرادت التغيير، عبرت عن حالها، فصفعها بلا تفكير، لقد تجاوزت الحدود، فخرجت مسرعة نحو الطريق المجهول.

وفي منتصف الطريق، صرخت لقد كبرت كبرت ولي حق الاختيار، كما لعينيك حق النظر لي، وكعادته أعطاها حلوى وحضنها بشدة، وبلهفة الأب المذعور، همس فى أذنها: لن تجدي بديلا لحضن أب فرضه عليك القدر ...

****

لحظة وداع

كانت تقبع في أحضانه بهدوء كعصفور صغير، تبشره بأحلامها القادمة، أحلام المراهقين ببيت صغير وحديقة وأزهار وبحيرة ماء وأشجار وبيت للعصافير وحوض أسماك كبير، أحلام طفولية لا تنم عن ذكاء امرأة فى الخمسين من عمرها، وبضحكات متقطعة نظرت لذلك العجوز وقبلته.

جذبني تصرف العجوز، يا له من بارد المشاعر وجامد الأحاسيس! لم يتفاعل معها حتى بنظرة منه وكأي حديقة تجول حولنا بائع البالونات، فتحولت من وداعة العصفور إلى فتاة شقية؛ طفلة جذبت انتباه جميع من حولها، يا لسخرية الموقف! تريد بالونة وتصر عليها وتردد أريدها حمراء حبيبي، أريدها حمراء. أخرج بعض النقود من جيبه واشترى لها البالونات وتركها تمرح، لم يلتفت لأي شخص ولم ينطق بكلمة واحدة بل ترك عيونه تراقبها والابتسامة على شفتيه وهي تجرى مع الأطفال هنا وهناك.

فزع أشد الفزع عندما وقعت على الأرض وهي تجري. لم أتمالك نفسي لقد حقدت عليها عندما حملها بين يديه وأخذ يطيرها كطفل صغير أى حب هذا ؟! لم يهتم لنظرات الناس ولا لهمساتهم بل أهتم بفرحها فقط. وكأي كاتب أردت أن أعرف سر هذا الحب صدقا كامرأة ذهب قلبى يبحث عن الحب الذي هجرناه في حياتنا المادية.

اقتربت منهما وسألته عن الساعة! لم يجبني. فردت هي وقالت: ابتعدي عنه أيتها الشريرة، تريدين أن تأخذيه منى. وقفت لى كأنها وحش يدافع عن مكمنه. أحرجت من الموقف وأعلنت انسحابي وهرولت مسرعة، وفي نفسي كنت أردد هل قرأت عيوني؟ هل قرأت نظرة الإعجاب فيهما؟ هل سمعت دقات قلبى ولوعة الشوق للقاء حب مثل هذا! وفى غفلة مني نزلت من عيني دمعة على خدي، مسحها ذلك العجوز وهو مبتسم. أخجلني الموقف وتبسمت له فأهداني وردة بيضاء وقال: بنيتي لا تغضبي منها رجاء. لم تقصدك أنت. هززت رأسي وقلت له: أسعدكم الله.

مشيت خطوات والفضول يأكل قلبي عن ذلك الحب. كنت أحمل فى يدي كتاب علمي؛ سقط مني أو ربما

أسقطته أنا؛ لأني أعلم أنه سيلتقطه لي، فهو فارس بمعنى الكلمة.

وبالفعل ناداني وأعطاني الكتاب وسألني هل تحبين القراءة في الكتب والمجلات؟ قلت بلهفة: نعم، أنا أعشق الكتابة والشعر.

لمعت عيناه، ضحك وقال أنت تشبهين زوجتي. ابتسمت له وقلت: هل هي زوجتك؟ تعكر صفو وجهه وقال: لا من رأيتها هذه حبيبتي، فرقتنا الظروف ولم نتزوج. زوجتي شاعرة معروفة. كنت في صغري أميل للشعر. قرأت لها كثيرا وتزوجنا، وهم راحلا. أمسكت يده وكررت وتلك السيدة من هي؟ فظهر على ملامحه الضيق وقال بصوت فيه حدة: هى حبيبتي_ فقط حبيبتي_

نظرت له وقلت: كيف؟ رجع وجلس جواري وقال: كانت جارتي، تربينا معا، كبرنا معا. كنت أحلم معها ببيت صغير وأطفال حتى صدمت بواقعنا الأليم. كان أبى يعمل عند والدها خبازا فى فرنه، وكان والدها قاسي القلب. بعد تخرجي من كلية الطب رفضني وأهان والدي أمامي. أقسمت أن أحرق له قلبه كما حرق قلبي. عملت في مستشفى كبير. مات والدي وصرت وحيدا. قررت السفر،

وسافرت إلى فرنسا. تعلمت وعملت هناك حتى وصلتني رسالة من صديقي يخبرني أنها تزوجت. فقررت أن أتزوج. تزوجت زميلة لي جذبني لها أبياتها الشعرية الرقيقة. لم ننجب أطفالا. أخذتنا الحياة وعدت إلى مصر أنا وزوجتي وعدت لعملي هنا.

وبعد أيام من رجوعي، كان لي صديق طبيب يحكي لي دائما عن مريضة جميلة جدا، في حالة ثبات من الحياة، توقف عقلها عن النمو تماما، حالتها صعبة لأن التخلف العقلي نتج عندها أثر صدمة عاطفية. لم يتحمل الألم فأعلن عقلها الانسحاب ولم يتوقف قلبها عن الحب، وهي تعيش دائما في مرحلة المراهقة. تمنيت أن أرى ذاك الملاك كما يدعوها الأطباء عندهم.

وفى يوم دخلت غرفتها مع صديقي، ورأيتها نفس الابتسامة مع اختلاف بسيط في الملامح. عندما رأتني تهلل وجهها، عرفتني _نعم عرفتني_ وعرف كل من حولها أني أنا من حرق قلبها، من سلبها شبابها. صرت أبكي في الليل قبل النهار. صدقا شعرت بالندم والحسرة.

لقد كذب علي صديقي وأنا لم ابحث عنها ولم أعـد اسـأل عنها. بكى بكاء حارا؛ لم تغفر له دموعه عندي؛ فوليت هاربة بعد أن غمست وردته في الطين.

****

على شاطئ الفرات

يسوقها الحنين لبلاد ليست بلادها، ووطن يسكنه الحرب والفقر والقهر. حتى عندما أحبت عشقت رجلا بلا مستقبل بلا قلب. تهبط من طائرتها مسرعة نحو مكان اللقاء، فلم تجد أحدا ينتظرها غير الاشتياق.

تسير حافية القدمين على رمال الشاطئ، وهي تحتضن جسدها بيديها النحيلتين، تنظر حولها فلم تجد غير ملامح تلك الصورة التي سبق وأرسلها لها عبر الهاتف؛ المكان الذي سيكون فيه اللقاء بعد كل هذه السنين.

تقف بجوار صخرة، تشبه تماما قلبه؛ صماء قاسية الملمس، بأطراف أناملها الدقيقة، تنقش عليها حرفين، ترسم شمسا تحتضن القمر، وتحتهما تكتب وعدتني أن تمسك بيدي وتسير هنا معي على شاطئ الفرات، فأين أنت الآن؟ ثم تجيب نفسها: هو هناك يقف خلف الظلال كعادته. لا يريد الظهور ولا يريد الابتعاد. يروقه الوسط فهو وسط كل شيء.

تنهمر قطرات الدموع من عينيها، فقد عبرت كل هذه البلاد لإلقاء نظرة علي؛ وهو لم يأتِ. تسير وهي تنظر للموج الهادر الذي يصرخ بما في داخلها من ألم.

وفى الصباح يرن هاتفها برسالة منه، يخبرها أنها تشبه القمر في ليلة البدر، وقد أجاب على السؤال. أسرعت نحو الشاطئ وكلها أمل فى اللقاء، وعند الصخرة وجدت وردة جورية حمراء وخاتم من ذهب، كان مكتوبا على الصخرة؛ كنت هنا أراقبك عن بُعد أيها الحب الذي لن يكون فيه لقاء. سلام عليك من قلب عشق فمات.

جهزت حقيبتها وغادرت لبلادها التي جاءت منها وكعادتها رجعت بلا لقاء...

****

يد ولكنها غريبة

سنابل فتاة مرحة؛ تدهش الأخرين في حوارها، تثير جنون النساء من كلامها، لم تتجاوز الخامسة عشر من عمرها، سنابل تسكن في بيت كبير، والدها رجل ملتزم يحبه الجميع.

تقدم لخطبتها ابن عمها طبيب أسنان، لكن والدها رفض، فقد علم أن ابن أخيه قدم طلب هجرة لإحدى بلاد الغرب، وهو لا يستطيع الابتعاد عن ابنته الوحيدة.

وبعد مرور عامين، كانت سنابل تدرس في إحدى كليات الطب، لم يجذب قلبها أحد من طلاب فرقتها، بل جذبها معيد بكلية طب الأسنان، كانت تروقها نظرته لها وابتسامته العذبة، وملابسه الأنيقة، هو يشبه ممثلا عالميا، لم تخبره بما في قلبها.

وفي إحدى المحاضرات سألها: عن اسمها؟ وكم ازداد وجهها احمرارا عندما أعجبه اسمها. سنابل فتاة تهوى الرسم وتقليد الطيور، ترى عالمها بعين من الخيال، لم يعصرها الواقع الأليم.

وفي ليالي الشتاء أخبر الطبيب والدته عن سنابل وعن إعجابه بها وبأخلاقها، كما أنه قرر أن يرتبط بها. لمعت عين الأم فهي تخشى أن يؤذي ابنها تلك الفتاة. ولكن قررت أن تراقب في صمت. تشجع المعيد وذهب في يوم الجمعة؛ ليصلي صلاة الجمعة في مسجد قريب من بيت أبي سنابل؛ ليشاهد والدها، فقد علم أن والدها يصلي في هذا المسجد كل جمعة. اقترب من الصف الأول؛ وقف بجواره يصلي. أقام الإمام الصلاة وأدى الجميع الصلاة في خشوع. وقف أبو سنابل ليرحل، لكن منعته يد أحدهم، فقد تعلقت بيده يد المعيد وأحكمت الغلق على يد أبي سنابل. ابتسم أبو سنابل وقال: أهلا بك يا بني هل تريد من عمك شيئا؟ قال المعيد: نعم أريدك على انفراد؛ لنتحدث قليلا في موضوع مهم.

ذهب أبو سنابل مع المعيد إلى بيته وطرق الباب؛ فدخل غرفة جميلة يفوح منها المسك والعنبر، تريح الأعصاب. جلس المعيد وهو يتجول بنظره حول حيطان الغرفة؛ فحيطانها عبارة عن مكتبة تضم مئات الكتب. الغريب أن المعيد مازالت يده مغلقه على يد أبي سنابل، حتى انتبه المعيد، ونزع يده بصعوبة شديدة.

طلب المعيد يد سنابل للزواج من أبيها. فطلب الأب مهلة للسؤال عن العريس وسؤال العروسة عن هذا الزواج. وبعد أسبوع وافق الأب على العريس، وعمت الفرحة البيت.

وجاء يوم الخطبة ويا ليته ما جاء؛ فقد جاء بالحزن والخراب. كانت سنابل سعيدة جدا وكذلك والدها ووالدتها، الجميع سعيد إلا أم المعيد، فقد كانت عيونها ممتلئة بالدموع والحزن الدفين.

لاحظ والد سنابل ذلك فقال لها: هل انت راضية عن ابنتي أم لا؟ أخبرته أنها مريضة وتتماثل للشفاء. وانتهى الحفل بسلام، ورحل الجميع، طار النوم من عين سنابل وأمسكت فرشتها ورسمت قصرا كبيرا، وحديقة جميلة بها أزهار وفراشات وطيور ثم نامت في سبات عميق، حتى استيقظت وهي تصرخ أمي أمي. لقد افزعت والدها وأمها وهي تصرخ وتصيح ابعدوا تلك اليد عني...

حضنها والدها بشدة وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، والام ترقيها؛ ربما أحد عيون الحاضرين حسد ابنتهما الوحيدة على فرحتها.

وفي الصباح خرجت سنابل لكليتها ولكن وجهها أصفر لا يظهر السعادة عليه، فقد تأثرت بذلك الكابوس، ولكن سرعان ما نسيته فقد رأت حبيب قلبها ينظر لها، فذهبت تتهادى نحوه كأنها فراشة الربيع، سلمت عليه، فمد يده لها وأطبق على يدها بشدة، ظنت أنه يغازلها فزداد احمرار وجهها خجلا، لكن هو لا يستطيع أن ينزع يده من يدها، حتى أنه نزع يده بيده الآخرى كأن هذه اليد ليست يده. لم تنتبه سنابل لهذا الموقف، من شدة إعجابها به.

ومرت الأسابيع وتم تحديد موعد الزفاف، والعروس سعيدة جدا، فقد حصلت على حبها الأول، وأيضا العميد سعيد فسنابل حبه الثالث، الذي يعيش إلى الآن على الأرض. وقبل الزفاف بيوم اتصلت أم المعيد بوالد سنابل وطلبت منه أن تراه بعيدا عن البيت، وألا يخبر أحدا بذلك اللقاء. ذهب أبو سنابل مسرعا نحو الشاطئ ليشاهد أم المعيد ويعرف ماذا تريد منه؟ أخبرته أن المعيد ابنها مريض بمرض غريب لا يعرفه الناس؛ فيده اليسرى تتصرف بدون أمر منه، كأنها ليست يده، وأن

ابنها سبق وخنق فتاة قبل ابنته، وأحرق أخرى بتلك اليد برغم حبه لهم.

تعجب أبو سنابل من هذا الحوار كله وظن أن المرأة تخدعه، فكيف وهو معيد في كلية الطب؟ وعندما لمحت أم المعيد علامات التعجب فى عيون والد سنابل أخرجت كل التقارير الطبية التى تفيد بمرضه الذي يدعى باسم (داون اليد الغريبة) وهي عبارة عن خلل فى وظائف المخ المنشقة، وضمور أعصاب الشق الأيسر، مما يجعل يده تتحرك بلا قيود من العقل، ويفقد السيطرة عليها.

لقد بكى والد سنابل من الحزن والقهر، فابنته تحب المعيد وترسم القصور والبيوت وتستعد للزواج، فماذا يقول لها؟ وبماذا يخبرها؟ فقرر أن يواجه المعيد ويجعله يترك ابنته.

وفي المساء جاء المعيد وهو يحمل في يده فستان سنابل الأبيض. سلم عليه والد سنابل وأدخله الغرفة. ودار بينهما حوار طويل انتهى بخنق والد سنابل على يد حبيبها. سقطت سنابل على الأرض عندما شاهدت منظرا جنونيا؛ المعيد يخنق والدها بيده اليسرى وهو يصرخ ويطلب النجدة من الآخرين، كأنها ليست يده، والجميع يحاول

فك يده من رقبة والد سنابل، ولكن والد سنابل توفي في الحال؛ فقد دفع ثمن حب ابنته الوحيدة، والغريب أن سنابل للآن في المشفى تصرخ وتصيح أبعدوا تلك اليد عني...

****

ثعبان ولكنها امرأة

وقف أمام متجر المجوهرات، يتطلع في صمت على خلخال رقيق، يداعب ذهنه المريض؛ شكل ساقها بذلك الخلخال المصنوع من الذهب والماس، ويقدر ثمنه بخمسين ألف، ارتسمت على شفتيه ابتسامة عزباء، وهو يحمل الخلخال بين يديه، ويرحل في صمت، يركب سيارته الفاخرة، يقف أمام بيت متهالك، يكاد يسقط سقفه بين جدرانه، تهتز الأرض من تحته، وهو يمشي عليها بكبرياء، كأن الأرض تريد أن تبتلعه، يطرق الباب عدة مرات، حتى فتح الباب فرآها، فتاة صغيرة سوداء العينين، لها غمازتان، ترتدي ملابس بالية، تبتسم في وجهه وترحب به، يجذبها من يدها إلى خارج البيت، ويصرخ فيها ليس هذا مكانك، مكان هنا ويفتح باب السيارة ويدفعها للداخل.

تقف بلا حراك، تنظر إليه وهي تقول: عن أي الأماكن تتحدث سيدي، يعاود الصراخ قائلا: عن حياتك معي في قصري ومملكتي، ستكونين أميرتي، ويجذبها إلى حضنه، تتخلص منه كتملص الفأر من المصيدة وتبتعد عنه، يخرج ما في جيبه وهو يهمس: أحضرت لك قطعة من

المجوهرات، ستبرق جمالا في ساقك، دعيني ألبسها لك، ويركع أمامها. في هدوء تجيب: سيدي شكرا لك لكنني لا أستطيع قبولها، فلا أستطيع دفع ثمنها. يقهقه بصوت ساخر تدفعين ماذا ؟؟؟ تدفعين ماذا عزيزتي؟؟؟ أنت لا تستطيعين شراء حذاء لك أو فستان، وتريدين دفع ثمنه، أنا لا أريد منك مالا، أنا أريدك أنت، أنت يا شمس أغلى من كل شيء في حياتي، بل أنت شموس حياتي.

تهرب مسرعة نحو بيتها، وهي تقول: أنا لا أحبك سيدي، وأنا مخطوبة لعامل في مصنعك، وأنت تعلم ذلك، تغلق الباب في وجهه. فيرحل وهو يجر خيبته، يتجه نحو قصره في حزن شديد، فيجد العديد من الجواري التي تنتظر رضاه، يركع أمام صورتها ويصرخ: لا أريد غير شمس، شمس صادقة تشرق في حياتي، فينادي خادمه؛ اقتلوا العامل؛ حتى يكون لي الأمل في أنها يوما ما ستكون لي وحدي.

وبعد شهر كانت شمس ترقص بخلخاله في قصره، وعلى جثته، فقد أخذت بثأر من أحبته طول عمرها.

****

الصمت

الهدوء يلف المكان، فالأشجار ساكنة، تتساقط أوراقها في هدوء، هي تخشى أن تزعج أحدهم، الهواء خفيف ولطيف، لا يصدر صوتا، الكل صامت، القطرات تتساقط من عينيها بلا صوت، حتى القمر لم يعد يظهر في الليالي الكئيبة، كأنه هاجر السماء، لم تشق ضحكتها السكون، ولم يرتجف المنزل بصوتها، لم يبق على الأرض أشياؤها الصغيرة المبعثرة في كل مكان، كأنها لم تعد هنا، لقد رحلت معه خلف القمر.

تلك الروح الطفولية والعناد والصراخ والقهقهات والإزعاج والأشياء الكثيرة، رحلت معه، هي تقف أمام المرآة في صمت تقطف الدموع وترسم على رمشها شعاع شمس، وتمسح ذبول خدودها وتدفنها ببعض المساحيق، تمحي البسمة وترسم بلون الورد شفاه، هي جميلة الشكل، جثة الروح والقلب، تخرج من عالم الأموات عندما تصفعها كلماته، ترويها قصائده، تعجز عن قراءة كل شيء إلا حروفه، ولكنه رحل؛ خلف من وراءه صمت، قتل كل شيء، لم أرى روحا معذبة من قبل، أتعجب من تلك التي

أحبت قلبا وعبرت به نحـو الشـمس، لا تعـرف اسـما ولا شكلا ولا شيء، غير أنها في يوم كانت حبيبة بصدق ...

****

قلب صامت

يستيقظ كل صباح متجها نحو عمله، يبحث فى الطرقات عن زهرة برية، تحاول الحياة بلا قيود، فقد ترك في بيته امرأة عاجزة عن العطاء، تحتضن المشاكل والهموم، عابسة الوجه، وأثناء سيره يجد ياسمين فتاة ريفية سمراء تعشق السماء، تعمل فى محل للأحذية، تجيد الغزل بعينيها، شاهدها وهى تسير بجواره، ولحقها بنظره حتى وصل إلى محل عملها، هناك تسارعت النبضات في قلبه، وأغرورقت عيناه بالدموع ، فهي فتاة بساق واحدة ، فقد سقطت قدمها أمامه، خاف و ذهب مسرعا نحو عمله ، ولكن صورة ياسمين مرسومة أمامه، عاد يفكر كيف تسير في الطريق هكذا؟ وكيف تعمل؟

قرر أن تكون هي بطلة الحب الضائع، الحب الذى يبحث عنه في الكتب، ونسج في خياله الحب والوفاء، لقد غاب عن وعيه أنه رجل متزوج ولديه ثلاثة أولاد، وأيضا زوجته سليطة اللسان، وبدأ يحلم بالحب، كل صباح ينتظرها في الطريق حتى يراها تمر من أمامه، يبتسم لها ثم يرحل إلى عمله، لم يعلم أن ياسمين تريد هذه المشاعر

فهي وحيدة ، قلبها مازال طائر أخضر لديه الكثير من المشاعر، لكنها تعلم أن ما تراه مجرد نظرة شفقة وعطف من رجل مجهول الهوية، ولكن عينيها لمعت بالحب، شاهد هذه اللمعة صاحب المحل ، وكان رجلا عجوزا أرملا. واستمرت الحياة هكذا، حتى أنهما كانا ينتظران بعضهما، حتى يشاهد كلا منهما الآخر، وفجأة انقطعت الرؤية، لقد اختفت ياسمين من الطريق، واختفت معها سعادته الكاذبة، لم يعد يبتسم، قرر أن يبحث عنها، ربما هي مريضة، ربما تحتاجه، أخذ يؤنب نفسه، فتاة أعرفها منذ عام ولا أعلم عنها شيئا، وذهب إلى محل الأحذية، هناك شاهد صديقتها التي تسير معها فتاة جميلة طيبة القلب، عندما سألها عن ياسمين، لم تجيبه بكلمة واحدة بل أعطته ورقة بها رقم ياسمين، وقالت له ياسمين تحتاج المساعدة، أخذ الورقة وطار فكره ما بها؟ ولماذا أعطتني صديقتها رقمها بكل سهولة؟ هل تعرفني او تعرف قصتنا؟ هنا تحدث ضميره عن أي قصة تتحدث؟ أنت تعلم أن ياسمين لا تعرف حتى اسمك فكيف تحبك؟ أخذ الرقم ورن على هاتفها وسمع صوتها، صعقته جملة من معي؟ فهي لم تتعرف على صوته في الهاتف، يعني هي لا

تعرفه، أغلق الهاتف وعاد مسرعا نحو بيته، وجد زوجته تجهز نفسها لمناسبة خاصة ، وطلبت منه أن يذهب معها إلى بيت عمتها التي ماتت منذ خمسة أعوام، قرر أن يخرج مع زوجته ويذهب إلى حفلة زفاف في بيت عمتها ، حتى ينسى ما مر به من ألم ، فقد تعلقت روحه برؤية ياسمين، لكن عقله يرفض المواجهة، وفى المساء ذهبوا جميعا للحفلة، وجد عروسة جميلة ترتدى فستان كأنه مصنوع من القمر، وعريسها رجل عجوز تجاوز الستين من العمر، لكنه يمتلك المحل التي تعمل فيه ياسمين ، نظر إلى العريس وتعجب كيف لفتاة صغيرة أن تقبل الزواج من هذا العجوز، انتبه أن أحدهم يسلم على العروس ويقول لها: الف مبروك يا ياسمين، هنا صرخ بلا قصد عن أي ياسمين تتحدثون، تمالكته الدهشة والتعجب على وجوه الضيوف، هو لم يتعرف عليها ولم يرها هو فقد رأى ما يريد ، رأى ساقها المبتورة، فقرر أن يصنع قصة حب أصلها العطف الذى جذبه نحوها، لم يتعرف على جمالها لأن عينيه لم تلاحظ جمالها، ابتسمت ياسمين له كالعادة، وظنت أنه جاء ليبارك لها، العجيب أن زوجها همس في أذنه، نظرتك لياسمين جعلتني أعشقها، أنت من حررها

من حزنها، وأنا من يسحبها لسجن الزوجية في بيته، انسحب الآن بهدوء، عاد من حيث أتى وهو مازال يبحث عن ياسمين ...

****

جارتي الجميلة

يقولون إن جارتنا المجنونة تعشق شبحا، فهي طيلة النهار تحكي معه بأصوات غير مفهومة، وبعض الليالي يروها تسير في حديقتها تضحك وترقص، وبعض المتطفلين يقولون إنهم يرونها تصرخ وتبكي، جارتي المجنونة قصتها مخيفة، لقد تملكتني الجرأة والشجاعة، وأيضا التطفل فذهبت لبيتها، بيت جميل وحديقة خلابة، كقصر صغير، هي لا تضع بابا أو سورا، فقط أزهارا وورودا، بالفعل هي مجنونة لماذا لا تزرع فاكهة أو خضرة؟ أو حتى بعض الأشجار المثمرة؟ يا الله عبير الزهور في كل مكان! وأصوات البلابل تشدو بأعذب الألحان، جارتي المجنونة بيتها يشبه بيوت الأحلام، لعل الشبح صنعه لها ويحميه، استرقت النظر خلسة، ما أجملها من جارة ويا لروعة طلتها، ويا لسحر عيونها! إنها تبتسم لي، من هذه الحورية، فأكيد هي ليست جارتي المجنونة، فهي ليست قبيحة كما يقولون، لها شعر كشعاع الشمس.

اقتربت منها لأسترق السمع هي تغنى بصوت حنون لحبيبها، ذلك الشبح أين هو؟ هل يراني؟ لماذا يتركها

وحيدة، كأنها وردة بريـة وسـط حديقـة ياسـمين؛ كانـت تتهادى في مشيتها، لقد أحسـت بي، لكنهـا لـم تهـتم بـل قالت لي خذي وردة وارحلي ودخلت بيتها، فأنا لن أرحـل بدون رؤية بيتها، تسحبت خلفها، ودخلـت مـن البـاب، أدهشتني ألوان البيت، وروعة ترتيبه، وأناقة أثاثـه، لـيس كبيت الساحرات، ما أجمله! عنـدما رأتـني أتطلـع لبيتهـا ضحكت بصوت عالٍ، لقد سقط قلبي مـن بـين ضـلوعه، وأسرعت بالهرب، ولكنى شعرت بيـد تمسـكني وتجـذبني نحوها، إنه الشبح، صرخت بأعلى صوتي أنقذوني من الشبح كان وجهه مشـوها يرتـدي زيـا أسـود ا، نهـرني وقـال لي: اصمتي سوف أقتلك أن عدت مرة أخرى. هيا ارحلي مـن هنا وتركني، هربت بسرعة اتخبط في الجدران لقـد رأيـت الشـبح، وحـين غفلـة سـقطت على الأرض ولـم أسـتطيع الحركة، لقد أغشى علي، لم أشـعر إلا حـين حملـني رجـل طيب القلب قال لي لا تخـافي لقـد آذيـت نفسـك، مسـح الدماء من جبهتي، وهدأ من روعي وسألني: أيتهـا الأمـيرة من أين أتيـت؟ ولمـاذا جئـت إلى هنـا صـغيرتي؟ قلـت له بصوت خنقه البكاء تطفل مني، لقد أردت أن أرى جـارتي

المجنونة والشبح، ضحك بصوت ساخر، من قال لك أنها مجنونة؟ ألم تشاهدي جمالها وروعة بيتها؟

نعم، رأيت ذلك، ولكني أيضا رأيت الشبح. هنا قال: بصوت حزين هو ليس شبح؟ هل تريدين الحقيقة؟ سأقص عليك حكاية المجنونة والشبح بشرط أن تدخلي معي البيت مرة أخرى.

حملني ودخلنا بيت الشبح ولكن هذه المرة دخلت البيت محمولة من رجل فاتل العضلات قوى البنية، لن يؤذيني ذلك الشبح اللعين، ولكن هذا الرجل يرتدى قناع جميل جدا؛ هل كان في حفلة تنكرية؟ ابتسم وقال: لتلك المجنونة، اعطيني كوبا من العصير البارد، وبعض الفواكه من فضلك.

لقد سمعت جارتي المجنونة كلام هذا الرجل الطيب، وربما خافت منه فهو مفتول العضلات، وأكيد جميل، كنت أنظر له بتعجب، فعندما يبتسم يكون ملاكا، قال لي: ما اسمك صغيرتي؟ بخجل قلت: قمر ابنة جاركم الأستاذ باسل، صاحب محل البقالة في الحي، قال: نعم أعرف العم باسل، فمنذ مدة لم أره، كيف حاله؟ قلت: بخير، ابتسم لي وقال: هل يعلم أبوك أنك هنا؟ بحزن

أجبته: لا، لـم أخـبر أحـدا، لقـد دفعـني التطفـل وأردت معرفة الحقيقة، دائما أمي تخبرني، بعدم الاقتراب من هنـا، وتعنفني عندما أنظر من النافذة إلى هنا، هل أنت صـديق المجنونة والشبح، بصوت يشبه الرياح صرخ، قلت لـك لا يوجد شبح هنا يا قمر، لا يوجـد، لا تصـدقي كلام النـاس، لقد سبقته دموعي ولسعته كلماتي أريد الرحيل مـن هنـا، ركع أمامي وهو يرتجف لا تبك أيتها الصـغيرة، فـدموعك البريئة هذه أكبر دليل على وجود الحب في قلـوب النـاس، وأهداني وردة بيضاء، وجلـس بجـواري يغـنى لحنـا جمـيلا هادئا.

بعد لحظات عادت المجنونـة، تـردد عليـه نفـس اللحـن، ويبتسمان لي، مد كوبا من العصير لي، فرفضته، فقال لي: لا تخافي لن نأكلك فأنت صغيرة ونحيلة، سـوف نطعمـك حتى تسمني، ثـم نـذبحك وضـحكا معـا، لـم أبتسـم ربمـا يـأكلاني بالفعـل كيـف أهـرب منهمـا، جذبتـه الحـيرة والخوف اللذان ظهرا بوضوح شديد عـلي، قـال: بهـدوء لا تخافي نحن نمـزح معـك، لـو أردت الرحيـل فهيـا ارحـلي، ولكنـك تريـدين الحقيقـة أولا؛ هي ليسـت مجنونـة، هي عرفت معنى الحب والسلام والتضحية، عرفـت أن الحيـاة

الهادئة في الابتعاد عن مظاهر الكذب والعنف والقسوة بين الناس.

سأحكي لك فاسمعيني جيدا، جارتك المجنونة اسمها حنان كانت ابنة لرجل غني يمتلك أكبر مصنع في بلدتنا، كان يتفاخر والدها بجمالها، ويقول في بيتي المال والجمال ويضحك ، كل يوم عند خروجه من البيت؛ لابد أن يرى حنان ، لكي يكون يومه سعيدا، كان الشبح موظفا صغيرا عنده ، عشق حنان من وصف وكلام أبيها عنها ، تمنى رؤيتها ، وبالفعل جاءته الفرصة ، لقد عزمه والدها على حفلة عيد ميلادها ، كان يعد الدقائق والثواني، حتى حانت اللحظة فهو في بيت صاحب المصنع، بيت جميل، كل شبر في القصر فيه ورود ورائحة العطر وشذى الأزهار في كل مكان ، لقد أذهله جمال البيت ، فكيف بجمال ابنة صاحب البيت ، فجأة أفزعته صورة لامرأة قبيحة في المرآة ظهرت واختفت فجأة، كأنها هواء. أين ذهبت تلك المرأة القبيحة، اتبعها بعينيه فلم يجد لها أثرا، كأنها هواء وتبخر. ظهر على ملامح وجهه الخوف والقلق ؛ سرعان ما أشرق وجهه من جديد فقد ظهرت حنان تمسك يد أبيها، توزع البسمات على الحضور ، وتتبادل القبل بين

أصدقائها الصغيرات ، هي تبلغ من العمر الخامسة عشر عاما ، ولكنها تبارى الكل بجمالها ، لم ينسى الشبح تلك اللحظة عندما سقطت خصلة من شعرها على وجهها لترسم أجمل قوس قزح رأته عيناه ، ونظر إلى جارتي المجنونة وضحكا معا ؛ العجيب أن جارتي دائمة البسمة ، وتنظر للرجل الطيب بكل إعجاب وحب، لقد أزعجني منظرها عندما نظرت له ، كأنها تتذكر الشبح ، قاطعني كلامه عن التفكير، لم ينسى الشبح تلك الليلة ورؤيته لتلك الجميلة وأخذ يرسم مستقبله، تفوق في عمله، وحصل على ترقيات ، وبعد ثلاث سنوات كان الرجل الثاني في المصنع ، لقد أحبه الجميع وتعلقوا به حتى صاحب المصنع اعتبره ابنه وشريكه ، لم يبح لصاحب المصنع بحبه ، بل لم يظهره لأحد ، كان كالشمعة التي تحترق عندما يراها، وأسعد أيامه عندما دعاه صاحب المصنع على العشاء، هو فقط سيتناول الطعام مع حبيبته وأبيها أرتدى أجمل الثياب، وذهب مسرعا قبل الميعاد ليحصل على دقيقة ليراها وحدها لعلها تشعر بما تخفيه النظرات، دخل البيت وتأمل كل شيء، وحلم بأنه بيته وأنها زوجته، وأخذ في وضع الأُمنيات والأحلام ، حتى أفزعه ما رأى في

المرآة تلك المرأة القبيحة مرة أخرى ولكن ليست صورة بل حقيقة ، تقف أمامه بلا ساتر أو حاجز ، تلمع عينيها وتصرخ ، لقد أذهله ما رأى ، ارتعدت فرائضه وقرر الهروب من المكان ، لكنه تراجع عندما رأى حنان تضم هذه المرأة وتحتضنها وتقول لها اهدأي اهدأي أمي ، هنا تسمرت أقدام الشبح ، وألف سؤال يدور في فكره.

ظهر صاحب المصنع وبدأ في الصراخ والعويل على الخدم، وبصوت عال من أخرج هذه المجنونة من حجرتها ألم أقل لكم لا أحد يخرجها أبدا؟ الويل لكم جميعا. أجابته حنان بصوتها العذب: أنا من أخرجها أبي؟ لا تغضب ولا تنسى أنها أمي، زادت حدة صوته لا تقولي إنها والدتك لأحد، انظري لها أنها قبيحة ذميمة ومجنونة، أما أنت لا يوجد شيء يضاهى جمالك في الأرض، وأخيرا انتبهوا لوجود الشبح الذي تمنى لو أن الأرض تنشق وتبلعه، فرحبوا به أشد الترحاب، وقدموا له العشاء؛ لكنه لم يتناول شيئا، كفاه ما رأى وما سمع اليوم.

هم بالرحيل وقبل رحيله وعد صاحب المصنع أنه لن يبح لأحد بشيء مما سمع فقد تجاوزت ابنته، السابعة عشر من عمرها، وهو يبحث لها عن زوج ثرى ومن أصول ملكية،

هز الشبح رأسه ورحل دون كلمة واحدة، وفى حديقة البيت كانت تنتظره حنان وفى يدها باقة ورد جميلة، بابتسامتها العذبة قالت: شرفتنا الليلة، لقد حمل الشبح الباقة دون كلمة ورحل، أخذ يسير في الشوارع والدموع تنهمر من عينيه، حتى وصل بيته ونام حتى الصباح. عندما استيقظ وجد باقة الورد ذابلة وجافة، علم أنها النهاية، تحولت حالته للجنون، فحنان هي زهرة شبابه كيف تراها عينيه مع غيره، بسبب طمع أبيها، وحالة أمها السيئة، أخذ أجازه لمدة شهر من المصنع ورحل بعيدا عن الجميع، حتى يفكر جيدا ويعيد كل الأحلام والأمنيات التي رسمها تفكيره، تغيرت حياته في هذا الشهر، تحول لإنسان أخر، دائم التفكير، كثير البكاء، يعيش في ظلام ووحدة، حتى أعلن إنهياره وتناول حبوبا سامة، وغاب عن وعيه، قمر أيتها الصغيرة هل تعلمين أنه عندما أفاق وجد من أمامه؟ وجد حنان تقف وهي دامعة العينين، وعلى وجهها إعياء شديد، كأنها هي التي بلعت تلك الحبوب السامة، شعر في هذا الوقت أنه أخطأ الظن، فحنان تحبه كثيرا، تماثل للشفاء وعاد مسرعا للعمل، وتجاوز محنته، وتقبل واقع الحياة.

مـر عام على هـذه الحادثـة والشـبح مـازال يتـذكر كل التفاصيل واللحظات الجميلـة والمشـاعر، وحانـت لحظـة الفراق، فقد تقدم أحد الأثرياء ليتزوج حنان، وقـد وافـق والدها وهو شديد الفرح، فقد اختار لها بعـد عنـاء زوج، سيضعها في قفص من ذهب، كانت ملامح حنان الحزينـة، تخبر الجميع أنها ترفض هذا الزواج، لكـن والدهـا لـم يـر ذلك الحزن، وتحدد موعد الزفـاف، هنـا قاطعتـه بصـوت غاضب وأين الشبح من كل هذا؟ ألم تقل إنه بحبهـا؟ لمـاذا لم يخطفها على حصـانه الأبـيض؟ كانـت نظـرة الـبراءة في عيني تخبره أنني ما زلت صغيرة ولم أعرف الآن معـنى أن تحب وأنت فقير، لا تملك شيء، أجابتني جارتي المجنونة: قمر أيتها العصفورة ، لقد حان وقت رحيلك للبيت، فقد تغضب والدتك من تأخرك، سأنتظرك غـدا، وسـأعد لـك بعض الحلوى ، هيا حبيبتي الصغيرة ، امسك هذا الوسـيم يدي حتى أوصلني لباب البيت، وأخبر والدتي أنـه وجـدني أتسلق شجرة الورد لأقطـف وردة، وسـقطت مـن فوقهـا، حملتني أمي بين يديها وهى تعاتبني أمام هذا الوسـيم الذى اختفى في لحظة، كأنه بخار ماء، احتضنت أمي بشدة فـهي جميلة وحكيمة وأنا أعشقها، برغم أنني ازعجها كثيرا.

ونمت نوما عميقا في حضن أمي الغالية، استيقظت مبكرا مع العصافير، وكل جزء مني مشغول بجارتي الجميلة وبالشبح، كنت أود أن أعرف باقي القصة، فقمت مسرعة من فراشي، ابحث عن أمي، لم تكن في المنزل، ربما خرجت لتروي حديقتها الخاصة.

فارتديت ملابس الخروج، وخرجت من المنزل، واقتربت من منزل جارتي الجميلة، كان هناك صوت في حديقتها، يشبه الغناء سمعتها تحكي للشاب الوسيم وتقول: لن أنس أنك ضحيت من أجلي أيها الشبح، فأجابها: كانت ليلة حزينة لي، ولكن فزت بك في النهاية.

هنا تدخلت أنا عن أي شيء تتحدثون؟ ابتسمت جارتي وذهبت تعد لي طعام الإفطار، وحملني هذا الوسيم بين يديه حيث شعرت بحنانه ودفء قلبه ، تناولت الإفطار معهما، كما تطفلت على حياتهم، فجارتي ليس لديها أطفال ، قالت جارتي: كنت سأتزوج شخص لا أعرف عنه شيئ ، سوى أنه غني ، لكن القدر انقذني من حياة لم أكن أريدها ، حيث خرجت أمي من غرفتها ليلة الزفاف، وأشعلت النار فى البيت كله، وحدث حريق هائل وقد اجتاح معظم المكان، تركني العريس وسط اللهيب

وهرب مسرعا، و أشتعلت أمي وأمسكت النار في أبي، حتى ظننت أنني سأحترق أيضا، وهبدت الدموع من عينيها ، لم يعد لي أي أحد ، أصبحت يتيمة ووحيدة سمعت قمر صوت الرجل الوسيم يقول: لا تقولي وحيدة، فأنت بنتي وزوجتي ، نعم كنت أراقب حبي الذي كان على وشك الضياع ، وكنت أقف أمام والدك عاجز لأنني فقير، ولكنني أحبك، وعندما رأيت المنزل يحترق ، لم اتردد لحظة واحدة في البحث عنك، حتى وجدتك، ونجحت فى انقاذك ، وبالفعل دخلت المنزل كانت النيران في كل مكان ، والانفجار حطم أثاث المنزل ، وكان البيت على وشك الانهيار، توجهت لك و حملتك على كتفي ، ولم نحترق وخرجنا بسلام ، كنتي ترددين اسمى، قلت لي أن ابي وأمي قد ماتوا محترقين ، ولكنني سمعت صوت والدك في الداخل، حاولت مساعدته لم اتردد ، فدخلت وسط النيران وجدت غرفة والدتك مغلقة ، حاولت أن أفتحها ، وفجاءة إنهار علينا سقف البيت ، واحترق والدك حتى الموت ، وتشوه وجهي أنا ، لم يكن وقتا مناسبا لأحكي لك ما حدث، كان همي الوحيد أن تكوني بخير ، مطمئنة القلب ، فقد احترق وجهي كله ، ويعتبرني الناس شبحا ،

إلا إنني فى نظرك بطلا، كانت إصابتي بالغة ، لكنني لم أشعر بها ، كان كل همي أن اراك مطمئنة ومرتاحة البال فقط ، نظر لي الرجل الوسيم وقال: أنا الشبح ذو الوجه القبيح والقلب الكبير ، و صمتا و تعانقا معا ، وددت لو يرى كل الناس جارتي وزوجها الشبح و يعرفوا قصتها وقصة بيتها الجميل ، ولكن هيهات لبعض البشر، خرجت من بيتهما إلى أمي التي رأتني أخرج من هذا البيت، فما كان منها إلا أن تعاقبني على فعلتي وتحرمني من زيارة الأصدقاء أنا قمر صديقة لجارتي الجميلة والشبح...

****

مازال في العمر بقية

ضاقت عليه السماء بما رحبت؛ عندما علم أنها تركته ورحلت، ظهرت عليه علامات القهر والضياع، المشيب في شعره كله خصلات بيضاء؛ تذكره باقتراب القبر من جسده؛ ولكن بلا فائدة وبلا قيمة، يخرج هاتفه وهو مبتسم سعيد، كطفل تجاوز المائة صديق، يغازل كل امرأة على المواقع الاجتماعية، ويظن أنها الفطرة، يبدع في الحيل والمؤامرات، يتهرب دائما من المواجهة، يظن أن حياته هكذا أفضل، ولم يعترف بأنها فانية.

نسى قمر وما فعلته من أجله؛ لأنها أرادت أن تحتمى ببقايا هذا الرجل، علمته معنى الحب والتضحية، وضعت فيه أحلامها، حفرت عليه بأنوثتها أنه لها، برغم كذبه المتكرر، كانت تتلمس الصدق والطيبة، وكانت تردد بإقتناع لماذا يخضع رجل عجوز خلف قناع؟ نسيت فرق السنين بينهم، ربما لأنها وحيدة شعرت به، فهو مثلها وحيدا فقيرا بلا أهل أو مال، يعيش في دائرة مغلقة، لا جديد فيها، هو مريض ولكنه يحمل في قلبه ما تريد، غريبة أنت يا قمر ترفضين شابا وسيما غنيا من أجل

عجوز تجاوز الخمسين عاما، أي عقلا هذا؟ تضحك وتقول: هو أبي وكل شيء، تمر الأيام وهي ترسم الأحلام وتشيد من كذبه وحيله حياة وردية، بيت عصفور وحديقة أزهار ورحلات وفسح ومال، هو أخبرها بذلك، بكلماته أوامر تنفذ بطاعة دون جدال عقيم، وحانت اللحظة وارتدت قمر فستانها الأبيض الطويل، أخيرا بعد عشرات من السنين.

****

حلم رفض أن يتحقق

رسمت بيدها المرتعشة بيتا صغيرا، تحت ظل شجرة خاوية، بجواره بحر واسع صاخب وهائج، وعصفور بجناح واحد، ووقفت تنظر للألوان بعيون الماضي القريب، وضعت الفرشاة في اللون الأسود، ولونت بها البحر، وهدأت لتلتقط أنفاسها المرتعشة وهي تبكي وتأن، لا أعلم، هل تبكي على ذكريات أم جرح أم فكرة؟ لكنني كنت أراقبها بصمت شديد، رفعت عينيها فكانتا كعشب غطاه المطر في ليلة شديدة البرودة، وهمت واقفة تداعب شعرها الموج تحت ضوء القمر، وتردد أغنيتها المفضلة الحزينة، نشيد كان يحفظه صغيرها قبل أن يغرق في بحر اللجوء، هنا تحدثت؛ أختي ما بك؟ لم كل هذا الحزن؟ أنت صغيرة ولطيفة وسوف يعطيك الله أفضل وأجمل منه.

هنا التفتت لي بنظرة تعصر القلب، وهمست شفتاها بكلمة واحدة كيف؟ كيف أنسى ذلك الصغير؟ لقد غرق أمامي أبتلعه البحر؛ ثم لفظه في أحضاني، كان ينظر لي ملهوفا؛ ويردد أمي، أمي ... هنا سقطت على الأرض وبدأت تردد أمي، أمي؛ حتى وددت أن تصمت وتصمت

للأبد، أراها جوفا يحترق في نهارها، تكون في الصباح كظل شجرة عقيمة ماتت من أعوام في صحراء قاحلة، وفي ليلها كشبح تردد كلمة واحدة هي أمي، أمي. وعندما تنام تستيقظ بدموع لا تدر متى ذرفتها مقلتاها. يا الله كن مع امرأة عبرت الحدود من هول الحروب لويل أمواج البحر! أختي كانت لاجئة حلمت ببيت صغير لطفلها، يظلها من رصاص الغدر، لكنها وقعت في شباك القهر والفقر؛ كعصفور بلا جناح، لتجد نفسها في قلب العاصفة.

نعم هدأت عاصفة البحر على جثة صغيرها كأنها أرادته لتهدأ؛ لكن آثارت أعصار الأمومة عندها بلع كل شيئ أمامه، أعصار قاسي دمر امرأة تدعى ياسمينا، تركها بعد أن أصبحت لاجئة، ثكلى تندب صغيرها، لله درك يا ياسمينا لله درك يا صغيرة!!!

****

ضحايا القلب

تركب سيارته الفاخرة، بثيابها الممزقة، وتجلس بجواره، يتلو عليها أوامره، يبدأ بجملة أريدك دائما أنيقة، فأنت زوجة رجل أعمال معروف، وستكونين أيضا خادمتي المخلصة والمحبة والمطيعة لي، أم على أن أمزق جلدك الناعم هذا، فقد جئت بقدمك إلي، لم تنطق بكلمة واحدة كانت عيناها زائغتين، كأنها تبحث عن ملاك ينجدها، أو إنسان شهم يدافع عنها.

لمحت في منتصف الشارع طفلة تجري، فأسرعت بالنزول من سيارته تعدو خلف الطفلة، تصرخ وتستغيث بالطفلة، لم تنقذها عائلتها من ظلمه! فكيف تنقذها منه طفلة؟ إنها حقا مجنونة! تركها تركض وأخذ يراقبها كحيوان مفترس يترقب الفريسة، سرعان ما مرت سيارة شرطة أمامها، نزل الضابط يسألها: لماذا تجرى في منتصف الطريق؟ لكنه حضر أمام الضابط فجأة وقال: إنها زوجتي ومريضة نفسيا شكرا لك، وأخرج من جيبه بعض الأوراق المزورة وأعطاها للضابط، فتركها له ورحل، هي لم تنطق بكلمة واحدة، فبداخلها تعرف أنه لا مفر لها ولا

مهرب منه، أمسك معصمها بقوة، وجذبها لحضنه، ضمها لصدره، فسجنتها يداه، حملها إلى داخل سيارته، وانطلق نحو سجن الزوجية، هناك عند الغرف المظلمة والسب والقذف والضرب، هناك عند انتهاك الجسد وسلب الأرواح، لقد أدخلها غرفتها، غرفة يفوح منها رائحة الموت، رائحة الحقد والكره.

جلس بجوارها يحتسى كأس خمر، لأول مرة منذ خمسة أعوام تقول له: ارحمني لقد أنهكني التعب، اقتلني وارحمني، لا أعلم ما ذنبي وما جريمتي ولماذا تعاقبني؟ ولكن كفى واقتلني، هنا علت قهقهته سريعا، أنا أقتلك؛ أقتل زوجتي ابنة الرجل الذي قتل أمي، لأنها كانت فقيرة كيف هذا؟ أنت ابنة سيدي؛ ذلك السيد الذي أقسمت على قبر أمي أن أقتله ببطئ حتى يتمني الموت، لكن أبيك رحل سريعا وتركك لي، وترك بداخلي نار تحرق أحشائي.

نهض مسرعا نحوها يجذبها من شعرها، ويضع قدمه أمام فمها ويقول لها: قبلي قدمي وحذائي، ترفض تقبيل قدمه؛ فيصفعها على وجهها دون رحمة، هكذا فعل أبيك مع أمي لكيلا يضربني أو يحرق يدي، لكن أمي كانت تقبل قدمه، تصرخ لماذا تزوجتني؟ وما ذنبي؟ يصرخ هو أيضا وما ذنب

أمي؟ عندما تزوجها أبيك لحاجة أمي، فقد مات أبي وتركنا أنا وهي تحت أبيك يذلنا ويذل أمي، يجلس على الكرسي، ويبدأ في شرب كوب آخر من الخمر، تركع أمامه وتبدأ من جديد تقول له: أنا أحببتك، لقد عشقت عينيك، أين طيبة قلبك؟ أين ذهب ذلك الإنسان الشهم؟ يهب واقفا دفنوه مع جسد أمي، يسير نحو الباب تعترض طريقه، لا ترحل وتتركني وحيدة هنا، يدفعها بقوة؛ لتقع في الأرض على وجهها، ويسرع متجها نحو قبر والدته، هناك يجلس وحيدا ويبكي بكاء مريرا، لم يعد يحتمل كلام زوجته عن الحب القديم، فقد عشقها وأحبها قبل أن تموت أمه تحت أقدام عمه.

لقد هبت عليه لحظة سلام داخلي وتذكر حبها له ؛ فقد كانت تدافع عنه أمام أبيها ، حتى والدته كانت تحبها وتناديها ببنتي ، شعر بالذنب فقد أذاها كثيرا ، وعد أمه ونفسه أنه لن يؤذيها مرة أخرى ، أحس بجزء من الراحة الغريبة وأحس بالشوق يجذبه نحوها ، فحمل نفسه وعاد مسرعا ، فتح باب غرفتها المظلمة فلم يراها ، ولكن عندما دخل الغرفة تعثرت قدماه في شيئ على الأرض، وعندما أشعل الأنوار، صعقه رؤية الدماء في كل مكان ،

لقد مزقت شريـان يـدها ، وجسـدها ملـقى على الأرض ، مزقت يدها بقطعة حديد صغيرة كانت مجرد حلية صغيرة لطفلة ، أو ربما زينة شعر تلك الطفلة ، هنـا وقـف بـلا كبرياء، أخذ يقبل يدها ووجهها المغطى بالدماء، ويطلـب منها عدم الرحيل، فقد تغير وسوف يغير حياتها للأفضل، ولكنه أحس بدمعتها التي على خدها تقول له: الآن هي في عالم أفضل...

****

وردة بلا ساق

في حفلة ضخمة مهيبة، جلست العروس مع العريس، يحتفلون بالخطوبة، فهم بعد معاناة مع الحياة، قررا الزواج، الفرحة في كل العيون، الغناء والزغاريت تملأ الأسماع، ما أجملها من ليلة! عندما تتعانق قلوب المحبين، وتحضن ضلوع ذلك القلب النابض بلهفة الشوق، انتهت الليلة بعد ما قيد العريس عروسته بخاتم الخطوبة.

وفى الصباح تبادلوا الحديث فى الهاتف والضحكات على ليلتهما الجميلة، الغريب أن العريس يعمل سائقا على سيارة نقل ضخمة بين البلدان، والعروس تعمل أكثر من عمل في الصباح عاملة في مطعم حلويات وبعد المغرب ممرضة في عيادة خاصة حتى منتصف الليل، هما من الشباب الذي يكافح من أجل لقمة العيش، كما أن العروس يتيمة ولديها ثلاثة أخوات هي أكبرهن، لكن الحظ كان لا يعرف طريق وردة، فالعروس اسمها وردة.

خرجت في إحدى الصباحات متجهة نحو عملها، وفى تفكيرها ألف مشكلة من مشاكل الحياة المستمرة، عبرت

الطريق دون أن تنتبه لإشارة المرور الحمراء، في لحظات عابرة كانت تحت عجلات سيارة دكتور كبير، لكنه ليس مذنب فوردة عبرت الطريق دون أن تنتبه للسيارات القادمة. كان مشهدا مميتا فقد قذفتها السيارة في الهواء، لتلتقفها سيارة أخرى، ثم تسحلها سيارة هذا الدكتور، سقط جسد وردة على الأرض غارقا في الدماء، توقفت معالم الحياة في وردة إلا نبض خفيف في يدها.

حملها الطبيب إلى المستشفى وهو يعلم أنها ماتت، لكن يريد أن يريح ضميره، أمسك هاتفها القديم واتصل بأخر رقم كانت قد اتصلت عليه من قبل، لم يجيبه أحد، حاول أكثر من مرة حتى يأس، في غرفة العمليات أدهشت وردة الجميع، لقد توقف قلبها مرتين، ثم يعود للحياة، كأنها في صراع مع الموت، علم الطبيب أنها متمسكة بالحياة ولديها هدف. أجرى لها ثلاث عمليات، نزفت دماء كثيرة، وخرجت من الغرفة حية إلى غرفة العناية المركزة. لهث الطبيب أخيرا أنفاسه، فوردة ستعيش.

سمع الطبيب رنة هاتف تصدر من جيبه لكنها ليست من هاتفه، بل هاتف وردة، أسرع بفتح الهاتف من معي؟ سبقه صوت شاب حبيبتي اتصلت بي كثيرا، ماذا حدث؟

عاجله الطبيب: السيدة صاحبة الهاتف في المستشفى هي بخير الآن، ولكنها تحتاج إليك، سمع الطبيب صوت بكاء ونحيب، كصوت طفل فقد أمه، أخبره الطبيب بعنوان المشفى وما هي إلا ساعات قليلة حتى حضر شاب وسيم وامرأة عجوز، يسألون عن وردة، هدأ الطبيب من روعهما، وأخبرهما أن وردة بخير؛ ولكنها فقدت ساقيها، ولكن يمكن أن تركب جهاز تعويضي بدلا منهما.

سقطت المرأة العجوز مغشيا عليها من هول الصدمة، واندفع الشاب الوسيم فى البكاء، يردد كيف، كيف؟ وردة الآن بلا ساق! المنظر محزن للغاية، والأشد حزنا عندما حمل الطبيب كيسا فيه ساق وردة، وأخبرهما أن يذهبوا لدفنهم، ثم يعودوا ليروا وردة.

حملت أم وردة الكيس وأخذت تذم حظها وحظ بنتها، أخذت تصرخ وتولول؛ لدرجة أن الطبيب أبكاه المنظر، خرجت العجوز مع الشاب تحمل ساق بنتها، ولكن لم تعد لبنتها، حتى ذلك الشاب لم يأتي مرة أخرى، والطبيب في حيرة من أمره، فوردة ما بين الحياة والموت.

قرر الطبيب أن يتبنى هو الحالة، ووقع بخط يده على كل ورقة تخص وردة، دخلت وردة في غيبوبة لمدة شهر، هي

تتنفس ولكنها في عالم آخر، من خلال هـذا الشـهر نمـت علاقة غريبة بين الطبيب ووردة، فهو يضع بجوارهـا وردة كل صباح، ثم يمر على غرفتها ليـلا، يلـقى عليهـا التحيـة ويجلس يقص عليها ما حدث طـوال اليـوم، حـتى أنـه في بعـض الأوقـات يغالبــه النــوم، فينــام على كــرسي بجـوار سريرها؛ حتى ظن الجميع أن الطبيب الكبير فقد عقله.

وذات ليلة وهو جالس بجوارها كعادته سمع صوت آهـات يصدر مـن فمهـا، نـزع جهـاز التـنفس عنهـا، وأعطاهـا العديد من الأدوية، حتى نظرت إليه بعينيهـا الدامعتـين، وقالــت: أيــن أنــا؟ أجابهــا: إنهــا مريضــة وهي الآن في المستشفى؛ وعليها أن تسترح. سألها عن اسمها فلم تجبه؛ هي لم تعرف نفسها أيضا؛ هي فقط تشعر بألم وتبكي.

عندها قرر أن يذهب هو لبيتها ويخبر والدتها أنها تحتـاج لها، وعندما وصل إلى المـنزل وسـأل: عـن والدتهـا أخـبره الجميع أنها ماتـت، وأخـبروه أن أخـوات وردة رجعـوا إلى قريتهم مع عمهم، وأن خطيب وردة هـاجر لدولـة أوربـا بعد موت وردة. تعجب الطبيب فوردة لم تمت! سألهم من قال لكم أن وردة قد ماتت؟ أخبروه عمها؛ فقد قال: أنها ماتت ودفنوها في قريتهم بعد موت أمها.

أخذ الطبيب عنوان عمها، وذهب إليه فى قريتهم، لم يجده ولم يجد أخوات وردة؛ فالعم يسافر لدول الخليج مع أولاده وأولاده أخيه. لقد أصبحت وردة بلا جذور لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت، حتى ذلك الحبيب المزيف هاجر ولم يتحمل، وحتى ذاكرتها خانتها؛ فلم تعد تتذكر أي شيء.

عاد الطبيب حزينا إلى وردة؛ التي وجدها تبكي ولا يعلم أحد ما بها إلا خالقها. قرر الطبيب أنه لن يتخلى عنها خصوصا أنه مثلها وحيدا. أمسك يدها بقوة وقال: وردة حبيبتي لا تبك وأخبريني بما يؤلمك؟ هي لم تجبه؛ بل نامت نوما عميقا، كأنها لم تنم من قبل.

استمرت وردة في المستشفى عاما كاملا، حتى استردت عافيتها؛ لكن ذاكرتها لم تعد لها. قرر الطبيب أن يخرجها من المشفى، ولكن إلى أين يذهب بها؟ ذهب إلى شيخ يطلب الفتوى، هل يجوز أن يتبناها؟ أجابه الجميع: لا؛ حتى توصل إلى حل يريح الجميع؛ قرر أن يتزوجها؛ يتزوج فتاة لا تعرف أي شيئ عن الحياة، لا تعرف في العالم كله إلا هو.

وبالفعل تزوجها وحملها لبيته. لم يكن زواجا مثل أي زواج، كان زواج أرواح تائهة في عالم مادي لا يؤمن إلا

بلغة الجسد. لم ير الطبيب في وردة العبء والمشقة؛ بل وجد بداخلها دفئا لم يشعر به منذ صغره، وجدها لوحة هو من يرسم عليها فقط، كانت تردد كلماته هو، ولا تعرف من عالمنا إلا هو، عندما يغيب عنها كان يرى في عينيها عتاب مغمور بشوق، لم تطلب منه الاهتمام، بل تكتفى بما يمنحه هو لها من حب، فقرر أن يصنع منها نموذج المرأة الكاملة، التي يتمني الحصول عليها، ساعده في ذلك هدوء وردة وخضوعها، وعدم تذكرها لأي شيء.

جلس ذات ليلة بجوارها وأمسك يدها، وبهدوء قال لها: من أكون أنا؟ أجابته: زوجي. قال: لا بل قولي: حبيبي. أسرعت بقولها: حبيبي. فأعاد السؤال عليها مرة أخرى من أنا؟ أجابته: حبيبي، شعر بنشوة الانتصار؛ فأخيرا وجدها.

تبدلت أحوال ذلك الطبيب؛ أصبح سعيدا؛ تشع الفرحة من عينيه، فهو دائما يخرج معها. قرر أن يضعها في امتحان؛ ليعرف هل نجح أم لا؟ أستيقظ في الصباح مبكرا، طلب منها أن تعد له الفطور الذي يريده، وأن تصنع قهوته، وبعد تناول الفطور معا، أخبرها أنه سيسافر معها لبلد أوربا؛ ليشتري لها جهازا حديثا؛

يساعدها على السير، مثل باقي النساء، وعليها أن تهتم وتشتري ملابسا لتذهب معه.

ذهب بها إلى محل الملابس، وأدخلها بكرسيها المتحرك، لم يجذبها شيء في المحل، بل نظرت إليه وابتسمت، فعلم أنها تريد منه المساعدة، لقد تحقق حلمه؛ فتلك الابتسامة تعني اختر أنت لي. فأسرع هو ليختار لها على ذوقه أجمل الفساتين. كان وقتا ممتعا مختلفا، فقد سبق وجاء مع زوجاته الأربعة من قبل، لكن كل واحدة كانت تختار هي ملابسها، وكان يضج من جلوسه في المحلات، ويضج من دفع الفواتير، أما الآن الأمر مختلف تماما، فوردة ليس لديها هذه الصفة، فهو من يطعمها على ذوقه، ويفسحها على ذوقه، حتى ملابسها يشتريها على ذوقه، ومن شدة سعادته، انحنى وقبلها أمام الجميع. تعجب الجميع من حبه لتلك العاجزة! نعم هي جميلة، لكنها بلا سيقان، لقد أنهى المهمة، واشترى لها كل ما هو جميل، وخرجا معا نحو سيارته، فوجد مطعما سبق وأن أحرجته زوجته السابقة فيه، دفع الكرسي أمامه بوردة حتى دخل المطعم وجلس على نفس المائدة، وصفق على يديه، فجأة قالت: نعم سيدي، ونظرت له في دهشة، ابتسم لها وقال: سيدي ؟؟

من قال لك هذه الجملة؟ لم تفهم ما حدث لها هي ردت دون أن تعلم ماذا قال؟ وأخذت تبكي، حاول أن يهدئ من فزعها، لكنه فشل فهو لا يعلم أنها كانت تعمل نادلة في مطعم؛ وهذه الجملة ردة فعل طبيعية لها.

نهض من على كرسيه، وركع أمامها، أمسك بيدها وبصوت حنون قال لها: لا تبكي حبيبتي فاليوم هو أسعد أيام حياتي، وطبع قبلة على جبينها، لقد حضنها بين يديه حتى سكنت وهدأت من حزنها. نهض وأمسك الكرسي ودفعه نحو الشارع، كان يسير معها بين المحلات، وبينما يسيران معا سمع صوت هاتفه؛ فتركها أمام محل أزياء لفساتين العرائس وأخذ يحاور من اتصل به لمدة عشر دقائق، وعندما أغلق هاتفه رجع ليأخذ وردة لم يجدها، أخذ يهرول هنا وهنا كالمجنون، لم ينتبه أن وردة دخلت محل الفساتين، وتسمرت أمام فستان أبيض جميل؛ فستان عروس مزخرف ومطعم باللؤلؤ الأبيض، مرت خمس دقائق أخرى حتى دله رجل على مكانها، فدخل المحل مسرعا، فوجدها مازالت عينيها عليه، وبصوت هزيل قالت له: حبيبي أريد هذا الفستان.

تعجب الطبيب من طلبها ولكنه دفع ثمنه وأخذه لها، كانت تحتضنه بقوة، كأنها عائدة من حرب وقد فازت بهذا الوسام، كانت تُتَمتم بكلمات غير مفهومة، وعندما أقترب منها وسألها: ماذا تقولين حبيبتي؟ قالت بصوت مفهوم: هل سيعجب ماجد وصمتت؟ ظهرت على معالم وجه الطبيب الحزن، وأعاد السؤال من هو ماجد حبيبتي؟ قولي لي: من ماجد؟ صمتت ولكن باحت عيونها بالدموع وقالت: لا أعلم لكنه اسم يتكرر دائما على لساني؛ كأنني أعرف هذا الشخص.

شعر الطبيب بالغيرة وقال لها: أنت لا تعرفين أحدا غيري. ساد الصمت بينهما حتى وصلا البيت، أدخلها غرفتها ووضع كل المشتريات أمامها، وخرج مسرعا نحو الباب، دخل مكتبه وأخذ يفكر في ماجد من يكون؟ فتذكر ذلك الشاب الذي كان خطيبها، فعلم أن عقلها بدأ يعيد لها المعلومات، ولكن ببطء شديد جدا، فتدارك الأمر، وذهب لها وطلبها أن ترتدي الفستان؛ فالليلة سيحتفلون بزواجهم.

وقام هو بإشعال النور وعلق الزينة في كل مكان، وخرج ليشتري الحلوى والمشروبات، اشترى لها أيضا هدية ذات

طراز فريد. كان يفكر وهو يقود سيارته، ماذا يفعل إذا عادت لها الذاكرة؟ وكيف يعيش بدونها؟ لقد أصبحت وردة كل حياته، ومصدر سعادة لقلبه الحزين.

وبينما وردة تجلس في غرفتها؛ شاردة الفكر تبحث عن أي شيء تتذكر من خلاله من ماجد الذي تحلم به في منامها؟ تراه دائما في منامها فارسا شجاعا يخطفها من فوق الكرسي؛ يطير بها نحو القمر بعيدا عن زوجها وبيته. ظلت تفكر وتفكر حتى انهارت من الحزن، وشعرت بدوار شديد فسقطت من فوق كرسيها على الأرض، أحست وردة بقطرات دم تسقط من أنفها، غابت عن وعيها لمدة عشرة دقائق، كأنها كانت في كابوس يعرض لها حياتها كلها، وعندما فتحت عينيها وجدت نفسها على أرضية الغرفة، وبجوارها فستان زفافها.

عاد لبيته مسرعا وكله شوق وحنين لرؤية وردة بفستان الزفاف، ولكنه وجدها كما هي لم ترتديه، بل تجلس على الأرض والدموع تتساقط من عينيها؛ وعلى وجهها ألف علامة تعجب واستفهام، صرخت في وجهه من أنت؟ وماذا فعلت بي؟ وأين أنا؟ ما هذه الزينة؟ ولمن الحفلة؟ وأين ساقي؟ وقف مصدوما أمامها، فقد تحقق ما خاف

منه؛ لقد عادت الذاكرة لوردة ولكنها لم تعرفني؟ نظر لها بضعف وجلس بجوارها على الأرض، وقال: هل تذكرت من أنت؟ قالت: نعم أنا وردة وماجد خطيبي وأنا كنت ذاهبة للعمل، وكنت أكلم ماجد بأنني وجدت فستانا جميلا لزفافي، لكنني لا أتذكر ماذا حدث بعد ذلك، ولكن أين ساقي؟ وكيف صرت هكذا؟ ومن أنت؟

صمت الطبيب بعض اللحظات، كأن العالم كله يتلاشى من أمامه، فوردة بين الحياة والموت مرة أخرى، كيف يحكي لها عن واقعها المؤلم؟ فبدأ يختلق الأكاذيب؛ بهدوء أخبرها أنه طبيبها المعالج، وقال لها: وردة قد عبرت الشارع ولم تنتبهي للسيارات، وتم بتر ساقك في هذا الحادث، لقد نجوت بأعجوبة حبيبتي. كانت في منتهى البراءة، الدموع لا تتوقف، والحزن مخيم على ملامح وجهها، وبصوت يملؤه الشحن قالت: أريد رؤية أمي وأخوتي. عن أي أم صغيرتي تسألين؟ فقد ماتت منذ عامين. كيف أخبرك بكل هذه الأمور؟ فأخوتك عند عمهم ولا أدر في أي بلد يسكنون؟ قاطعته بصراخها أريد أمي؛ اتصل بها. قال: أعطني رقمها سأخبرهم بمكانك؛ فأنت كنت فاقده الذاكرة، ولم تخبريني باسمك أو عن أهلك. قالت: أعطني

هاتفي، أنا سأتصل بأمي، أعطاها هاتفـه، وأخـذت تتـذكر الرقم حتى جمعته؛ لكن الرقم مفصول من الخدمـة؛ فهـو غير متـاح، حاولـت مـرة ثـم مـرة بـل عشرات المـرات، والهاتف غير متاح، والدليل في حالة صمت وحـزن، حـتى تذكرت رقم خطيبها ماجد فهاتفته، فوجدته أيضا مغلقا، ما هذا الذي يحدث لهـا؟ وبلهفـة شـوق رددت أيـن أنـت حبيبي؟ لماذا أغلقت هاتفك يا ماجد؟ الغيرة أكلت قلب الطبيب؛ لم يتماسك أمامها، وبلهجة حادة قال لهـا: لقـد تركك ورحل. عندما وجدك بلا ساق رحل؟ فر هاربا فهـو جبان، لم يتحمل مسئوليتك، عن أي حبيب تسـألين أنـا حبيبك فقط، أنا من ضحى من أجلك أنا من تزوجك.

برقت عيناها بـلا دمـوع، تـزوجتني كيـف؟ قـل كيـف؟ صمت الطبيب فقد حطم كل شيء في لحظـة غـيرة منـه، لقد كسرها بحواره هذا لقد حطم وردة... هنا أدركت وردة حب الطبيب لها؛ وأنها أصبحت وردة بلا ساق...

****

فتاة الخشب

كل صباح تشرق الشمس على وجهه الأبيض، فتلمع لحيته التي تشبه الثلج تحت أشعة الشمس، يقف دائما أمام شجرة عظيمة، يطعم العصافير، ويروي جذورها العميقة في باطن الأرض، واسأل نفسي هل هذه الشجرة تحتاج إلى من يرويها؟ فجذورها ممتدة إلى أعماق الأرض، ما هذا الجنون! لكنه يعشق هذه الشجرة فعمرها سبعون عاما، بينما عمره هو خمسة وسبعين عاما.

من نظرات عينيه تستنتج قصص الحب التي تجمعهما معا، كأنها حبيبته فمعظم أفراحه يحتفل بها مع هذه الشجرة، هو رجل غريب لم يتزوج برغم جماله، ورغم أنه من الأثرياء، كنت أنظر إليه من خلف نافذتي، وأتطلع إلى وجهه الأبيض تحت أشعة الشمس، وأتمنى أن أعرف قصة يوسف مع هذه الشجرة.

مرت من أمامي صديقتي ياسمينا، ألقت السلام علي وجلست تتحاور معه لمدة ساعة، ثم سلمت عليه ورحلت، وددت أن أعرف ما دار بينهما من حوار،

فياسمينا فتاة فنانة تعمل نحاته تصنع من الخشب لوحات وتماثيل فنية جميلة.

خرجت مسرعة نحو ياسمينا، لأعرف ماذا يريد يوسف منها؟ فهو جاري والجميع يطلقون عليه حبيب الشجرة، أخبرتني صديقتي أنه يريد عمل تمثال خشبي لفتاة ماتت منذ مدة؟ نزعت ياسمينا قلبي من كلماتها فتاة عن أي فتاة تتحدث؟

مرت الأسابيع وأنا أراقب العجوز من خلف نافذتي، وأنتظر ظهور التمثال الخشبي، لكنني أشعر بالغيرة والحقد على هذه الفتاة، حتى لو ماتت فيوسف يتذكر تفاصيل وجهها. لقد كان جاري في يوما ما حبيبا، وقدم قلبه لامرأة غير تلك الشجرة، راودتني أفكار كثيرة.

وفى صباح يوم جديد صعقتني عيناي، تمثال خشبي، مكلل بالورود والأزهار، لفتاة جميلة ذات شعر طويل، لقد قادني تطفلي إلى التمثال والشجرة، برغم أنني أخاف من مواجهة عينيه إلا أنني ذهبت، كان مبتسما على غير عادته، حتى أنه ألقي علينا التحية، فكل الجيران أدهشهم جمال التمثال، وروعة الفتاة، الغريب أن التمثال كان يبكي. رجعت إلى البيت وأنا أجر بقايا بركان يعتصر قلبي، أشعر

بالحزن ولا أعلم لماذا؟ فيوسف مجرد عجوز مختل عقليا يسكن بجواري، قاطعني صوت ياسمينا من خلفي تقول: هل أعجبك التمثال؟ هذه الفتاة هي ابنة يوسف الوحيدة ماتت مختنقة في حادث حريق؛ هي التي زرعت تلك الشجرة، ومن فروعها صنعت له هذا التمثال، لقد قال لي يوسف أنه يراها دائما تقف خلف الشجرة، وهو يتطلع إليها كل يوم.

سقطت على الأرض، لم أتحمل أن أكون بهذه القسوة، فهو أب فقد كل ما يملك، وأنا هنا أحاسبه على لحظات حزن ظننتها حبا، منذ هذا اليوم تغير كل شيء في عالمي، كل ليلة استمع صوت بكاء التمثال، وهمسات يوسف لها، حقا أصبحت تلك المجنونة التي عشقت مختلا.

****

الشمس

في حينا القديم، بيت مهجور، كتب على أبوابه بالطين، هنا تسكن الأحلام القديمة، هنا يقبع الشر الدفين، سألت والدي عن هذه المقولة الغريبة؟ أجابني بابتسامته المعهودة: أنت ما زلت صغيرة، وسأحكي لك قصة الشمس. تعجبت كيف يروي لي قصة الشمس والشمس في سمائي غائبة؟ عن أي شمس تتحدث يا أبي؟ وبكف يده العريض مسح على وجهي الحزين، وقال: عن الفراشة والشمس يا أميرتي. حملني والدي بين ذراعيه وطاف بي الدار، وهو يروي لي قصة الفراشة والشمس، لكن الفراشة يتيمة تجلس في حجرتها وحيدة، لكنها جميلة لون ثوبها زهري، تتهادى على الورود وترقص، أقنعوها أن تقترب من البشر، فلن تقطفها يد الشر أخبرتهم والدموع في عيونها تلهب قلب الجميع، أنها وحيدة وتعشق السفر، تخشى الفراق والوداع والهجر، لكنهم أقنعوها، فقالوا لها: من الذي تجرأ على هطول تلك الدرر؟ يفوح منك رائحة الياسمين، فلست وحيدة، أنت جميلة عندما تكونين بين البشر.

خرجت تلعب مع الأطفال، فهاجموها، وتغلب عليهم طبع البشر، ثم يقولون أنها ساحرة، فعندما تقترب من البشر يتحولون إلى وحوش قاتلة؛ وحوش تريد أن تنهشها أيديهم، كأن أيديهم تأكل جسدها النحيل، كأن فستانها الزهري يغري القمر، فتهرب مسرعة نحو الشمس، تلك القلب النابض لها، تهرب لتختبئ في أحضان الشمس، فتفتح الشمس أحضانها، وتبدو السرور بها، فتذوب فيها الفراشة، وتحرقها أشعتها، وتموت وهي سعيدة، لا تعلم أن كليهما قاتل، وأن وحدتها ربما كانت فريدة، ثم تغيب الشمس مرة أخرى، يصمت صوت أبي، وأشعر بالنعاس يداعب جفوني، فأنام على كتف أبي، وفى الصباح أشعر بالصقيع يجرفني، فاستيقظ وأنا وحيدة، ورائحة أبي في كل مكان، رغم أنه توفي منذ زمن إلا أنه مازال يروي لي قصصا في الأحلام!!

****

السقوط في الهاوية

تسكن في غرفتي امرأة غريبة الأطوار، امرأة من برد ونار، خارجة عن السيطرة، لا تعرف العقل أو المستحيل، وبرغم ذلك ليست مستهترة، لقد تجاوزت الأربعين من عمرها، ومازالت تراها عيوني جميلة، تدور حولها الكلمات والنظرات كثيرا، تترك بصمتها في كل مكان، أسمع من جارتي أنها لم تتزوج برغم جمالها، تقول النساء عنها في الحي (من كثرة الخطاب بارت)، ربما تكون غيرة منهن فهي للآن تراها العيون شابة، تعلق على باب غرفتي كل يوم دمية، وتركض مع الأطفال بعفوية، ربما قررت أن تعيش لنفسها وتتمتع بأيامها، هي صانعة الابتسامة.

اقتربت منها ممازحة مرة، عندما كانت تركض في غرفتي خلف قطتي ، تعجبت منها ومللت من حركاتها الكثيرة، فقلت بصوت عال: ألا تخشين أن تسقطي على الأرض وتنجرح قدماك، انظري في المرآة خلفك ، فهم مجرد أطفال وأنت كبرت أصبحت عجوز، وأنا مللت من تصرفك هذا، نظرت في المرآة ثم اختفت، لم تعد تركض في غرفتي، بل أصبحت غرفتي هادئة كتابوت الموتى، أصبحت

وحيدة بدونها ، فلم يدخل غرفتي أحد غيرها، أراها تلعب مع أطفال الحي، وترفض الاقتراب مني، أرى ضحكتها على شفاه الأطفال ويأسها في وجهي ، تعلمت أن ترقص كالأزهار، لا أن تكون مثل ورد الزينة يعلوه الغبار مثلي. وجدت أن العيب مني أنا فقد كنت قاسية، اقتربت من صندوقها ذات مساء، وأشعلت شمعة وأحضرت لها الكثير من الحلويات، فهي تعشق الحلوى، فجاءت تركض نحو الحلوى وملابسها مبتلة بالمطر والطين، ورائحة الخريف تنبعث من ثيابها، فقلت لها: أين كنت عزيزتي؟ قالت: كنت ألعب في الهاوية تلك البئر القديمة، هل تعرفين قصتها؟ قصة الهاوية؟ قلت: لا، اروي لي تلك القصة، قالت والبسمة على وجهها كأنك مجنونة أو معتوهة، أنت مجرد فتاة خاوية ، نظرت لها نعم ، أنا فتاة خاوية بلا تجارب أو كأنني أخشى المحاولة، هيا أخبريني أنت أيتها الذكية ، لمعت عينيها بالبكاء وقالت: أنا تلك الطفلة التي خلقها الله بداخلك ، فسجنتيها بمبادئك القديمة، وجعلت من ضلوعك قبر، وحكمت عليها بالهاوية، وهبت واقفة ، ويداها حول رقبتي، كنت ارتعش فهي امرأة مجنونة، وقد قررت أن تزهق روحي، نزعت رقبتي من

بين يديها، وخرجت مسرعة نحو الهواء الطلق، شعرت أن قدماي تغوصان في باطن الأرض، أو كأنني أسقط من فوق جبل على الأرض، هي تقف أمامي ولا تحاول مساعدتي، تقول لي هيا أنا سجنك، أنا بئرك، سأدفنك هنا مثلي، الظلام في كل مكان ، أصرخ بصوت عال، لا أحد يسمعني، لماذا تفعلين هذا معي ؟ قالت: لست أنا بل أنت وقلمك وأوراقك وحروفك حتي سطورك سجنتني ، أنت ما صنعته بي لم يغتفر.

جلست وفي يدها قلمي وقرطاسي تلك أوراق قصة حياتي، حياتي أنا البائسة، وقالت: هيا انهي معاناتي معك في قصة حزنك القديم، وضعي هنا الحلم والأمل، واطلقيني من بين ضلوعك وحرري فيّ الأمل، اجعليني أحلق عاليا نحو القمر، أريد النجوم ولن أرض عن ذلك بديلا، أمسكت قلمي لأحررها واحرر نفسي من الهاوية، فبكى وسكب كل قطرات الحبر على الأرض، وقال: لن أبوح على الأوراق مرة أخرى، فغضبت مني وسجنتني في الهاوية ورحلت هي تلعب مع أطفال الحي، وتصنع البسمة ....

****

صديقي

نامت والدموع في عينيها ، كان شكلها يشبه ذلك الطائر المذبوح ، هي لا تبوح بما في داخلها لأحد، لأنها تختلف عن أي أحد، عشق اسمها، والطيبة في ملامحها، لم تهزمها يوما إعاقتها، فمنذ الصغر والأطفال يسخرون من مشيتها، عشق ليس لديها أصدقاء مثل الفتيات في عمرها، فهي عرجاء لكنها جميلة، لديها عيون واسعة، ووجه بشوش ضاحك، كان كل همها أن تجد تلك الصديقة التي تقف بجوارها ، تعطيها الأمل في ربيع اليأس ، تعطف عليها وتخفف عنها وحدتها ، هي لم تطلب المستحيل ، لكن واقعها فرض عليها أن تتقبل وحدتها، أن تصنع عالمها الخيالي، صنعت لنفسها عالمين مختلفين، فخلف الشاشة الزرقاء جعلت صديقها يعيش، جعلته حقيقة واضحة أمام الجميع تقول: يا صديقي فيجيبها بحب، فقد صنعته بعناية، فهو يحمل بين ضلوعه قلبا يؤثر النساء، وضعت له صورة فهو يشبهها كثيرا، عشقا القمر معا، كانت تطوى الليالي السوداء بالحديث مع صديقها المصطنع، حتى اقتنع عقلها تماما به.

وفى يوم كتبت تقول نعم لي صديق وأحدثه من هاتفي، نسهر معا مع القمر، ونعزف أوجاع بعضنا لبعض، نكشف عن أحزاننا العميقة لبعضنا ، حتى أدق تفاصيل حياتنا نعرفها، صديقي لطيف ومهذب، لا يجرح مشاعري، يعلمني معني الحياة من واقع تجاربه الشخصية، في الحياة لا أجد أحدا يشبه صديقي، الليلة حكيت له عن وحدتي، وعن ما أشعر به من أوجاع ، وعن واقع حياتي المرير ، أنزعج كثيرا عندما أخبرته أنني جرحت أصبعي بالسكين، وأن قلبي المسكين لم يعد يحتمل، أخبرني أنني وردته وأن الوردة تملك العطر وعطرها يدوم كثيرا ، طلب مني أن ألقي السكين في القمامة ، فمثلي لا تحمل يداه سكين ، صديقي لديه طفلة جميلة تشبهني ، لها عينين واسعتين ، لكنني أغار منها، فصديقي الوحيد سمى طفلته الصغيرة عشق على اسمي، أعلم أن لديه أسرة ومسئولية، وأن لديه زوجة جميلة ، لكن كل هذا لا يهمني، فصديقي يفضلني على الجميع ، لقد أرسل لي الورود في عيد ميلادي، ويشتري لي هدايا الحب ، كما أنه كل ليلة يقرأ لي قصص، أعترف أنني محظوظة، ولكن الغريب أن صديقي يختفي عندما أغلق هاتفي، وصمتت

كأنها تذكرت حقيقة الأمر ، هي ليس لديها أصدقاء فهذا كان مجرد حلم ، ففي عالمها ذئاب تنتظر الاغنام الضالة من القطيع ويحجزها عنها جدار الأخلاق والقيم ..

****

سهام ودار الأيتام

تُفكر ألف مرة قبل أن تقبل العرض، فالعمل في دار الأيتام يحتاج لقلب أبيض ونقي، قلب يحتوي هؤلاء الأطفال المساكين، نزلت دموع سهام على خدها، فهي أيضا يتيمة وليس لديها أحدا يتحمل مسئوليتها، فوافقت على العرض وتسلمت الوظيفة، كان عملها في الدار مشرفة على الأطفال، تعلمهم حتى سن المدرسة، مع إشراقة الشمس حملت سهام حقيبتها، واتجهت نحو الدار مسرعة، شاركت الأطفال وجبة الفطور، وخرجت معهم إلى حديقة الدار تلعب معهم، كانت سعيدة جدا، حتى أزعجها صوت طفلة تصرخ وتصرخ بشدة، لا تتوقف عن الصراخ.

أسرعت نحو صوت الطفلة فوجدتها تقف مع مشرفات الدار الكل يحاول مساعدتها، هي تصرخ وتردد ماما، ماما! سألت سهام المشرفة: لماذا تبكي هذه الطفلة؟ قالت لها: لأنها جديدة في الدار، يقولون إن الشرطة وجدتها في الحديقة، ربما تكون تائهة، لم تتوقف الطفلة عن الصراخ، حتى أجبرتها مشرفة على تناول ملعقة دواء، جعلها تنام على كرسي المكتب.

تركوها المشرفات واتجهوا إلى أعمالهن، لكن سهام حملتها في حضنها، وأخذت تنظر لها طفلة جميلة جدا، بيضاء وشعرها ناعم كأنه حرير أسود، ملابسها أنيقة جدا، كأنها ملاك نائم، لكن ماذا سيحدث لها هنا؟ تسقط دمعة من عيني سهام، ثم تضمها بشدة، وتحملها في حضنها وتضعها فوق سرير فارغ، تخرج سهام نحو الحديقة وهي منهارة وتشعر بالعجز أمام براءة الطفلة.

وفى المساء رجعت سهام إلى بيتها، تفكر في مستقبل تلك الطفلة، وفى الدار بعد عدة ساعات استيقظت الطفلة وأخذت تصرخ مرة أخرى، ولكن هذه المرة لم يكن أحدا بجوارها، استمر صراخها للصباح دون توقف، حتى أنها لم يعد لها صوت، فقد أجهد الصراخ حنجرتها.

جلست الطفلة تحت شجرة وأخذت تنظر لكل شخص في الدار، تنظر للأطفال وهم يلعبون ويجرون، أصبح وجهها أصفر وبدأت عليها علامات الاعياء الشديد، فنامت تحت الشجرة، عندما جاءت سهام من بيتها ولم تجدها في المكتب، ولم تسمع صراخها، ظنت أنهم وجدوا أهلها ففرحت جدا، وخرجت إلى الحديقة، تلعب مع الصغار.

ومـرت السـاعات وجـاء وقـت تنـاول الغـداء، أخـذت المشرفات يهمسون بصوت منخفض أين رغدة؟ لم تسـمع سهام من قبـل اسـم رغـدة فقالـت لهـم: مـن هي رغـدة؟ فأجابوها الطفلة الجديدة. هنا انشقت الأرض مـن تحـت سهام فالطفلـة مازالـت هنـا ولكـن أيـن هي؟ خرجـت مسرعة تبحث عنها، تتلفت هنـا وهنـاك، حـتى وجـدتها تحت شجرة في حالة إغماء، حملتها بـين يـديها وخرجـت مسرعة نحو المستشفى، التي ما إن وصلت حتى علقـوا لهـا المحاليل والدم.

سألها الطبيب: كيـف تركـت بنتـك تصـل لهـذه الحالـة؟ ووصفها بأبشع الألفاظ والصور، لم تخبره أنها مجرد مشرفة في دار أيتام، بل أجبرتهـا مشـاعرها على تقمـص دور الأم المكلومة على بنتها، حتى أن الطبيب نفسـه أشـفق عليهـا من شدة بكائها.

عادت سهام لتخبر من في الدار بما حدث، لكن لم يهـتم أحد، فهي في نظرهم مجرد طفلة ضلت الطريـق، وسـتعود إلى والدتها أو ستمكث في الدار إن أراد الله لهـا ذلـك، وأن مشاعرهن قد نفذت من وجود حالات إنسـانية كثـيرة في الدار.

استمرت سهام ثلاثة أيام مع رغدة في المستشفى، تعتني بها وتعطف عليها، حتى أمر الطبيب بخروجها. ولكن نظرات الطبيب لسهام تثير الشك، لقد علم الطبيب أن سهام مشرفة الدار وليست أم للطفلة. ظن الطبيب أن سهام تتصنع هذا الحب أمامه، خرجت سهام وفى يدها رغدة وعادت بها إلى الدار. كانت رغدة لا تعرف أحدا غير سهام، حتى أن سهام لم تعد إلى بيتها منذ أسبوع، فهي تنام مع رغدة على سريرها، لم تتوقف الطفلة عن تكرار كلمة ماما، ولكن بعد عام من وجودها مع سهام، كانت الطفلة تقول لسهام ماما.

لقد وجدت سهام أسرة أخيرا، وأصبحت مسئولة عن طفلة جميلة، كانت نظرات المشرفات لسهام نظرات شفقة وعطف؛ فهن يعلمن ما سيحدث لها مستقبلا، هي فتاة لم تنجب بعد زواجها لأنها عقيمة، فقرر زوجها التخلص منها فتركها وسافر، ولا تعلم عنه شيء، لقد جعلت من رغدة كل سعادتها، ولكنها سعادة مؤقتة.

ومرت الأسابيع والسنين وأصبح عمر رغدة خمسة أعوام، حفظت أن سهام أمها، وأن الدار بيتها، برغم خروجها مع سهام في بعض الأوقات.

وذات يوم دخلت الدار سيارة فخمة ونزلت منها امرأة ذات حسب ونسب، نزلت من برجها العالي لتختار من الدار طفلة، فهي تتبني كل عام طفلة، ولكن لا يعلم أحد مصير هذه الطفلة، فهي تعطيهم لأسر ثرية بحجة التبني، لكن هذه المرة اختارت رغدة، لأن رغدة أجمل وألطف طفلة في الدار، صرخت سهام لا إنها طفلتي أنا، وحضنت رغدة.

ركبت المرأة سيارتها بعد أن وقعت على ورقة تتبني فيها رغدة، لم تهتم بمشاعر سهام أو الطفلة، ولم تستطع سهام الوقوف في وجه هذه المرأة، وجاءت موافقة الدار بإعطاء الطفلة لهذه المرأة، مقابل خمسين ألف دولار للأيتام في الدار، وتم تنفيذ القرار، ونقلت الطفلة لبيتها الجديد مع أم جديدة، ومازالت سهام تعمل مشرفة في دار الأيتام، ولكن لم تعد تسمع صراخ الاطفال كباقي المشرفات ...

****

حبُ مريض

رن هاتفها بعد مرور عام، صوت معروف لأذنها، صوت قديم تعرفه جيدا، جارها الخبيث فهد، ذلك الرجل الذي كان يطاردها بعد طلاقها عبر الاتصالات، وفجأة قالت له: ماذا تريد؟ لكن لم يجيبها وأغلق الهاتف في وجهها.

فادية امرأة في الأربعين من عمرها، هي متعلمة وعلى قدر عال من الجمال والصبا، عاشت تجربتين من أصعب التجارب، خرجت من الحياة الزوجية مطلقة وبمفردها، لم تنجب أطفالا، عاشت حياتها وهي محطمة، بداخلها ألف قصة حزن، تود لو يسمعها أحدا غيره، ويعطف عليها، لديها أخوة قلوبهم قاسية، حلمت يوما بأنها وجدت قلبا يحتويها، قلبا يعطيها ولا يأخذ منها، يسأل عن مشاعرها، يقدم لها العون.

فادية تذهب كل يوم إلى العمل وفى الطريق تتلاقي نظرات العينين، ثم تعود من عملها مسرعة نحو هاتفها، الذي أصبح لا يفارق يدها، صوت قلبها يصرخ هذا طريق السعادة، أما عقلها يرفض الاقتراب منه، ويخبرها أنه طريق الهلاك، ما بين شد وجذب، تسقط فادية فريسة

لفهـد، لكنهـا فريسـة سـهلة يعطيهـا الاهتمـام والحنـان والعطف والاحتواء، ويسلبها المشاعر ورقة الإحساس.
بدأ يسألها عن اخبارهـا وأحوالهـا ، لتتفـتح أبـواب قلبهـا ويتربع على عرشه ، ليحتل ما عجـز عنـه غـيره ، سـار في الطريق معا، لترسم مستقبل مشرق معه، بالرغم مـن أنـه متزوج ولديه أطفـال ، لكـن كان يسـاعدها في حلمهـا، ربما كانت كلمة الزواج هي السر او الشبكة الـتي صـادتها وقادتها في طريق الهلاك، الحب في نظره مجرد كلمات تحرك مشاعره ، يفرغ فيها طاقته، حروف تبعثر ثلج إحساسـه، نظم حياته على أنها ملكـه ، فقـد سـقطت في آبـار حبـه، عندما تنظر إلي المرآة تخبرهـا ملامـح وجههـا بـأن العمـر يجري ، وأن الشباب يضيع ، فتعود لتخبره بالوفاء بوعـده ، والـزواج منهـا ، فيعـود متحججـا بزوجتـه ، وخوفـه على أطفاله من الضياع ، فتصـمت وينـتهي حلمهـا ، فيجـدد حبها بكلامه المعسـول، وتعـود لتحلـق في أحلامـه مـن جديد، أحلام وردية ولكنها لن تتحقق ، فاديـة هي مجـرد دمية تحركها المشاعر ، وتـنزف روحهـا مـن أجـل الحـب، تمنت يوما أن تحلق في فضاء السـعادة ، فسـجنها حضـن ذئب، قتل قلبها وسلب روحها، وحولها لمجرد آلة تعمل في

صمت ، فهل كان الخطأ من قلبها أم عقلها لم يدرك خبث مشاعره ؟ وعندما استيقظت وجدت نفسها لا تصلح لأي رجل فلم يعد في مقدورها الطيران ...

****

هي والأشباح والعيد

جلست تتناول عشاءها، بهدوء ممـل أنهـت طعامهـا، ثـم حملت كوب قهوتها ودخلت غرفتها، وضعت رأسـها بـين يديها وأخذت تبكي وتأن، لكـن بحور الدمـوع في عينيهـا لم تنته بعد، شعرت بيد صغيرة تمسح دموعهـا والأخـرى تضمها، أحست إنها للمرة الأولى مطمئنة، وإنها بخير بـين أحضان صغيرها، قبلت جبهته الباردة كقطعة ثلج، نامت بين أحضانه، فهي لم تنم منذ وفاته، تعلم أن صغيرها مات في حادث سير، ولـكن كيف تنام بدونه ؟!

وضع عليها الغطاء وأخذ يلمس شعرها حـتى نامـت، وفى الصباح استيقظت سعيدة، ذهبت مسرعة لغرفة صـغيرها لكنها لم تجده، بل وجدت دمـاء في ملابسـه، سـقطت على الأرض مغشيا عليها، ومن حظها الجيد عاد الزوج ليراهـا في غرفـة صـغيرها نائمـة على سريـره وبـين يـديها ثيابـه، أيقظها مـن النـوم بحنـان وصـبرها على قـدرها، أرادت أن تقول له: أن صغيرها موجود ولكنه مختبـئ خلـف جـدار الغرفة كعادتـه، تحملهـا وصـبر على مرضـها، وفى إحـدى المـرات عنـد عودتـه وجـدها تجـرى في حديقـة البيـت

وتضحك ثم تحضن سيقان الأشجار، يا الله! هل جنت؟ لم يستطع عقلها تقبل الحقيقة وعند محادثتها عن تقبل القضاء وعن تحمل الألم، صرخت في وجهه أنها كانت تلعب مع صغيرها ماجد، أذهله الكلام وكمية المصداقية في كلامها، أساءه التدهور الذي وصلت له، فهي أهملت عملها وبيتها، وأهملت أيضا تنظيف جسدها، فقرر مواجهتها بالواقع.

وفى إحدى المرات كانت تعد الطعام فنسيت النار مشتعلة وأحرقت البيت، والغريب أنها لم تشعر بالندم أو الألم؛ بل أجابته ببلادة المشاعر أنها أطفأتها، ولكن الصغير كان يلعب وأشعلها، قرر زوجها وضعها في مصحة عقلية حتى يعفو الله عنها. كانت تصرخ أتركوني لابني اتركوني، لم يرحمها الطبيب أو زوجها، بل أغلقوا عليها غرفتها في المستشفى وتركوها، لم ترى صغيرها ولم تشعر به، كانت طيلة الليل تصرخ ماجد، ماجد! وحتى الصباح.

ومع إشراقة أول ضوء للشمس، نامت كأنها تنتظر الشمس لتشعر بالأمان، رجع زوجها للبيت وأخذ يصلح ما أفسده الحريق، ولكن عاجله النوم فنام من شدة التعب والأرق، لكن أزعجه ذلك الصوت القادم من

غرفة ابنه المتوفى ماجد صوت يشبه البكاء وهمس لكلمة أريد أمي، أسرع نحو الباب وفتحه، لكنه لم يجد شيئا؛ كل شيء كما هو، من أين يصدر هذا الصوت أذن من أين ؟! طيلة الليل لم ينم وهو يفكر ويسمع هذا الصوت.

وفى الصباح ذهب لزيارة زوجته التي احتار الأطباء معها فهي طيلة الليل تبكي، ومع أول ضوء نهار تنام، لقد انقلبت حياته إلى جحيم، جلس بجوار زوجته وقبل يديها، وقال لها: متى سيعود لك عقلك حبيبتي؟ ردت عليه بابتسامة: عندما تؤمن أن ماجد معنا في البيت؛ خلف الجدار الذي كان يلعب عنده، كانت دموعها أكبر دليل على رجاحة عقلها.

عند عودته للبيت أسرع نحو الجدار ونظر خلفه، واطال النظر لم يجد شيئا مختلفا، كل شيء في مكانه، إلا أنه وجد لعبة ماجد المفضلة لديه تلك الطائرة الصغيرة، أمسكها بيديه حتى تلطخت يداه بالدماء فقد كانت معه عندما توفي كيف وصلت إلى هنا غسلها وغسل يديه وجلس، وتذكر صغيره ووحيدة الذي مات بين أحضانه، وأنه كان السبب الأول في مصرعه، لأنه لم يغلق باب البيت خلفه، استشعر الموقف وأخذ يبكي، والغريب أنه سمع صوت

البكاء مرة أخرى، يصدر من جواره مـن الطـائرة يـا الله !! كيف هذا ؟!

صدمته الحقيقة؛ نعم، نعم، إن روح صغيره تريـد اللعـب مع والدته، وهو يبكي لذلك وأن زوجته كانت محقـة، فـكان في حـيرة مـن أمـره، هـل يخـرج زوجتـه مـن المستشـفى ويعيدها للبيت؟ أم يترك البيت ويرحـل ويأخـذها لمـكان بعيد؟

وفى الصباح حجز تذاكر لأبعد مكان عن بيته، لـم يأخـذ شـيئا مـن بيتـه بـل تـرك كل شيء حـتى ملابسـه، وحمـل زوجته، واستقل أول طائرة في رحلة بعيـدة عـن المـاضي؛ بحجة تقضية العيد والفسحة، وفى يوم العيد وجد زوجته في بيتها الجديد سعيدة أخيرا؛ فهي تلعب بطائرة صـغيرها وتحضن سيقان الشجر.

****

تزوجت قاتلة

جلس الأخوان معا؛ ليتفقا على زواج أولادهما من بعض؛ حتى لا يذهب إرث أبيهما لعائلة أخرى. الأخ الكبير لديه ابنة في العشرين من عمرها؛ تدعى بدور؛ لديها طموحات عالية، تحلم بفارس يأتي لها بالنجوم، وبرغم جمالها الذي فاق الوصف، يكرهها الجميع؛ لأنها أنانية ونرجسية الطبع. الاخ الصغير لديه ابن معاق حركيا لا يستطيع المشي، يدعى بدر على اسم جده، وقد تجاوز الثلاثين من عمره بلا زواج، كان يرفض الزواج من أي فتاة غير بدور ابنة عمه، فهو صديقها الوحيد والذي يعرف كل تفاصيل حياتها، يعمل في شركة كبيرة، إنسان عطوف محب للسلام، يعشقه الجميع لطيبة قلبه ورقة مشاعره.

في المساء عادت بدور من بيت خالتها، ليصعقها خبر الزواج هذا، لم تعترض ولم تبكي بل صمتت وتلقت الخبر ببرود شديد، كأن في رأسها شيء مهم تفكر فيه، دخلت غرفتها وأمسكت هاتفها ومثل كل ليلة، بدأت تكلم بدر ابن عمها وصديقها الوفي المخلص.

قالت له: بدر هل طلبت يدي من أبي اليوم؟ ألم تعلم بأنك لست فتى أحلامي؟ كيف أتزوج شابا عاجزا يقوده كرسي؟ لم تعطه مجالا ليتحدث هو بأي كلمة بل أغلقت الهاتف في وجهه، واستدارت نحو مرآتها تزيل مكياجها الصاخب من على وجهها، بينما كان بدر مازال يضع الهاتف على أذنه، وفمه مغلق، وعيناه تلمعان بالدموع، كانت صرخات قلبه تمزق حيطان البيت، هو يعلم أن ابنة عمه لا يهمها مشاعر الآخرين، وأنها تقتل كل شيء جميل يحاول الاقتراب منها، لم يطلب من أبيه أن يخطب له بدور، بل لم يطلب من أحد شيئا، أراد أن يذهب لأبيه ويصرخ لماذا فعلت بي هذا؟ لكن عند الباب تذكر أنه ليس من أخلاقه أن يغضب والده، فتراجع وكتم غيظه في صدره، وقرر أن يعلم بدور معني الحب، الحب الحقيقي الذي لا ينظر صاحبه لجسد الآخر، فالحب ليس تلاقي أجساد فقط، بل هو تعانق أرواح فقط، فمنذ هذه الساعة بدأت بدور تقتل حبها في قلب بدر بكلامها الجارح، وصمته الرهيب، حتى عندما جاء أبوه مهللا بالخبر. صمت وأخبره بالموافقة على رأيه، لم يقل له أي كلمة من كلام بدور.

ومرت الليلة، بدور نائمة في فراشها وعلى سريرها، بينما بدر يرسم بيتا جديدا سيكون لبدر وبدور، والعجيب أن البيت ليس له نوافذا أو أبوابا غير بابه الرئيسي.

وجاء وقت عقد القران، ارتدى بدر ملابسا بسيطة ولم يكن أنيقا كعادته، بينما بدور ترتدي أغلى الثياب وأجمل الحلي، وهي في كامل زينتها، وعلى وجهها تظهر صفعات أبيها من ليلة أمس، فقد أجبرها والدها على هذا الزواج.

التقت نظرات بدر بنظرات بدور، شيء عجيب غريب، فنظرات بدر تحمل الدفء والحنان والحب، بعكس نظرات بدور له، كانت لها ضحكة كاذبة، مثلجة المشاعر، جافة الإحساس، بداخلها قبح وسواد، بعكس وجهها الجميل الصبوح.

انتهت الليلة بسلام ، وعاد كلاهما إلى بيته، عاد بدر وهو سعيد جدا ، فكان يستمد سعادته من نظرات بدور التعيسة، بينما بدور أخرجت هاتفها وبدأت تقتل في قلب بدر ، تصب غضبها على بدر، لتزيل من قلبه حبها الحقيقي، اتهمته بأنه إنسان مريض وعاجز لا يعرف معني الحب ، ولا يهتم بمشاعرها، هي لا تريد الزواج منه، في الماضي كان صديقها المحبوب، والآن هو عدوها اللدود، ثم

تغلق هاتفها ، وتذهب لمرآتها ؛ لتزيل مكياجها الصاخب ، ولكن اليوم تلمع عيناها بالدموع ، فقد فقدت صديقها الوحيد، ولم تجد أحدا تحكي له ما تشعر به، فليس لديها أي صديق غير بدر ، وأغلق بدر هاتفه ، وعاد يرسم بيته المغلق ، ويصمم حديقة جميلة جدا ، ليزرع فيها بدور.

ومر شهر على حفلة عقد القران ، لم ير فيها زوجته المستقبلية بدور، بل كل ليلة تقتل مشاعره، وتحطم قلبه، ويقل ميزان الحب لها في قلبه ، يسمع سبها وقذفها له بأصعب الألفاظ، وتعود لتمسح مكياجها وتبكي كأن قلبها يعاقبها على حب هذا الصديق ، أم هو يستمد من ألمها وحزنها قوته، حتى أنهى تصميم البيت ، وذهب إلى مهندس بارع وطلب منه تنفيذ البيت على قطعة أرض يملكها ، وبدأ في بناء عش الزوجية، الذى يشبه كثيرا السجن ، قرر أن يحتفل بدر مع بدور بهذه المناسبة العظيمة ، فذهب لبيت عمه بمفرده ، يحمل العديد من الفساتين والهدايا والورود، وأخبر عمه أنه يريد الخروج الليلة مع زوجته، وافق العم بشرط أن تذهب أم بدور معهما مراعاة للعادات والتقاليد في القرية.

وخرج بدر وبدور وأمها، فاختار أجمل مطعم لتتناول فيه بدور العشاء، كان يعلم من قبل حب بدور لهذا المطعم، وأي الأطعمة تعشق، بدأ بدر يخرج لها ذلك الصديق الذي فقدته، واشتري لها الورود والهدايا مرة أخرى، حتى شعرت بأنها أميرة، لم ينقصها شيء في السهرة، فكل طلباتها تتحقق بدون أن تطلبها، لاحظ أن عيونها تلمع بالفرحة عندما يقدم لها هدية، لأنها تعشق المظاهر.

عادت ليلتها وهي سعيدة بعض الشيء، فقد خاطبته بصوت هادئ تلك الليلة وشكرته على الهدايا والعشاء الفاخر في المطعم، وأخبرته أيضا أنها لم تشعر بعجزه، واستدارت لتمسح مكياجها الصاخب وقلبها ينبض قليلا، بينما بدأ وجه بدر يتغير ويبدو عليه القسوة.

مر وقت بناء البيت وكل يوم يخرج بدر مع بدور ويجلب لها الهدايا والورود، وهي كل ليلة تتحدث معه حتى أنها لم تعد تهينه أو تزعجه بكلامها السيء، بل لم تعد تنظر في المرآة كثيرا، كأن قلبها ينبض بالحب.

وأخيراً جاء وقت الزواج، وقرر الأهل زيارة عش الزوجية، قبل الفرح بأسبوع حتى يطمئن الجميع، ويفرح قلب بدور، وفى الصباح كانت سيارة مزينة بالورود يقودها بدر

أمام بيت بدور التي عندما رأتها ذهلت ، فهي بنفس مواصفات سيارة الأحلام، خانها لسانها أمام الجميع فقالت: بدر حبيبي هذه سيارتك! أجابها: نعم حبيبتي الغالية؛ هي سيارتي وسيارتك بعد الآن. هنا برقت عيناها بالفرحة والحب معا، ففارس أحلامها برغم أنه معاق حركيا إلا أنه يحقق أحلامها.

قاد بدر السيارة والجميع في سعادة، حتى وصل إلي بيت يتكون من الخارج من أربعة جدران وباب فقط، اندهش الجميع لا يوجد نافذة تطل على الشارع، وبدأ القلق يظهر على وجه بدور، لكن من داخل الجدران يوجد بيت في منتصف الأرض وحوله حديقة رائعة الجمال، يشبه البيت بيت الأحلام الذى بنته بدور في أحلامها، فكل جدران البيت من الداخل زجاج ، ويظهر خلف الزجاج أشجار الورود ، أثاث البيت فرنسي الصنع، بيت كلفه الملايين من الدولارات، كانت الفرحة والسعادة في نظرات بدور تغطي على جمال البيت ورونقه، لقد عشقت البيت وعشقت السيارة، ولكن هي بالفعل تحب بدر، صديقها الوحيد في هذا العالم.

أخذت تتجول معه بمفرده حول البيت وترسم حياتهما معا ، تخبره بندمها على كل كلمة، وعلى رد فعلها، اعترفت له بحبها السابق له، لكن عقلها كان يرفض هذا الحب عندما تراه على كرسيه، كانت تظن أنه لن يستطيع الاهتمام بها، أو إسعادها كزوجة له، انتهت من حوارها الذى استمر أكثر من ساعتين، وبدر صامت لا يتكلم، وبداخله يشعر بلذة الانتقام، فأرادت أن تثبت حبها الحقيقي له، وقفت في منتصف الأهل، ثم جلست أمام بدر، وقبلت يديه أمام الجميع، واعترفت بخطئها في حق زوجها المستقبلي، وطلبت منه أن يسامحها أمام الجميع، نظرات الحب واضحة في عينين بدور، ولهفة قلبها هي من تتحدث، لكن فجأة ابتعد عنها بدر وقال لها : كنت حب عمري، وأمل حياتي طيلة الأعوام السابقة، عشقت أشياءك التافهة ولكن، أنت طالق يا بدور، طالق بالثلاث، طالق بعدد جروح قلبي، طالق بكل كلمة قلتها لي، أنت طالق يا حبيبة عمري، وخرج وهو يصرخ لقد تزوجت امرأة قتلتني، بينما الدموع هي من مسحت مكياج بدور من على وجهها الجميل ...

لماذا ماتت ...؟

وكعادتها خرجت من بيتها إلي المدرسة، سعيدة لكونها معلمة، فهي تعطي وقتها لطلابها وللعلم، تنسى أن تطعم روحها أو تحن عليها، لكن لا تنس أحدا تهتم به أو ترعاه، وقفت على شرفة مكتبها، تطلع نحو المستقبل ، تحلم بالأمل القادم، الجبل كما هو والسماء صافية، وصوت العصافير يصدر من كل اتجاه، لكن المنظر ينقصه شيء مهم ، المنظر غير مألوف لعينها ، نعم هذا مكتبها و هذه شرفتها، لكن هناك شيء مختلف، شيء تغير في صمت، ترك أثره ثم رحل ، وبعد تدقيق وسؤال للجميع ، تذكرت هناك شجرة لم تعد موجودة ، لم تخضر وتحمل فوقها أعشاش العصافير، تذكرت عندما جاءت إلي مدرستها أول مرة.

كان يروقها منظر الشجرة، لكن اليوم وجدت شجرة يابسة، تقف أمام شرفتها لا تحمل أي ورقة خضراء على أغصانها، اعتصرها الألم وقتلها الحنين لتلك الشجرة. فكم ضحكت أمامها! عدة ذكريات مرت عليها هنا، لكن قد ماتت الشجرة الآن وجفت وانتهت ورحلت

دون أن تشعر بها، فوقفت تحتها لتنوح عليها وتلوم فعلتها، كيف لم تلاحظ ذبولها؟ وقفت لتذرف عليها بقايا روح أنهكها العطاء، فقد تعلق قلبها بجدار الشجرة، فطرحت عليها عدة أسئلة وهي تبكي لماذا لم تقاومي؟ لماذا لم تدافعي عن جذورك؟ لماذا تخليت عن أحلامك؟ لماذا قررت الانسحاب وعدت إلى الوراء؟ لماذا موتي في صمت؟ لماذا انكسرت بلا سقوط؟ وجلست بجوار ساقها الكبير، تنظر لشكلها المخيف. لقد كانت تشبه الأشباح لونها بني داكن يميل نحو السواد، فروعها أخشاب قديمة أكلتها الدواب، أغصانها تشبه الأشواك، من يراها يظن أنها بلا أصحاب، بقايا جذورها كان رمادا تذروه الرياح، أفزعها صوت ذلك الغراب الذي ينعق فوق أغصانها، بسواده وصوته يخبرها بالنهاية، نهاية كل شيء جميل في حياتها، أخذت تجري مبتعدة عنه، ورحلت مسرعة نحو مكتبها، أغلقت النوافذ والأبواب ومازال صوت الغراب ينعق في أذنها، هربت نحو بيتها تجر جسدها النحيل.

اختبأت خلف باب غرفتها، بل فوق سريرها ترتجف، لكن صوت الغراب مازال يهاجمها يصرخ بكل قوة إنها النهاية، تذكرت أنها تركت روحها هناك عند الشجرة،

كانت تظن أنها السبب وراء ما حدث للشجرة، هي لم تلاحظ سقوطها، لم تعلم أن الشجرة قررت الانتحار عندما جاء دورها في التضحية، مثلها تماما فقد ضحت بشبابها ليعيش الجميع، وعندما كبرت قرروا أن يحرقوا قلبها ليعيشوا هم في دفء وأمان، وفى الصباح كعادتها خرجت من بيتها بعد أن تعودت روحها على منظر الجبال بلا أشجار .....

****

امرأة قررت الانتحار

تشعر أن قلبها ينزف، تشم رائحة الدم يخرج من جوفها، يخبرها الطبيب إنها مريضة، وأن مرضها سببه الحزن والقهر، يطلب منها أن تخرج من عالمها المظلم إلي الحياة، فهي مازالت صغيرة على كل هذا اليأس، تستمع إلي كلامه دون اهتمام، تنظر في المرآه التي داخل حقيبتها، فترى عجوزا بلا أحلام وبلا أهداف وبلا واقع، امرأة أعطت كل شيء كما خسرت كل شيء، تمسك في يدها ورقة بها إرشادات الطبيب، تخرج مسرعة نحو الشارع وكل تفكيرها إنها وحيدة، كأن الزمان تنازل عنها، لا تجد ظلها في عيون الناس، لم تر جمال عينيها ورقة مشاعرها، لم تشاهد ابتسامتها وطفولة وجهها، لم تعكس مرآتها صورة وجهها الحقيقي، تلك الغمازات المضحكة وتلك النظرة.
جذبتها علبة دواء مكتوب عليها سم لحفظ الغلال، التقطت تلك العلبة ورحلت دون كلام، لم تستمع لكلام الرجل الواقف هناك وهو يخبرها بمدي خطورتها على الأطفال، هو لا يعلم أنها بلا أطفال بلا حب بلا أسرة، امرأة بلا ماضي وبلا حاضر وبلا مستقبل، تتسارع أمام

عينيها الأحداث الحزينة التي تساعدها على الانهيار، كأن حياتها كانت بلا أفراح بلا بسمة، لقد نسيت ما قدمته من خدمات وما فعلته من واجبات، لقد نسيت إنها كانت مهمة في حياة بعضهم، لكن اليأس وحش جعلها فريسة للأوهام، فقد قررت أن ترتاح وتعيش في أمان، أعلن قلبها حالة الاستنفار، تخيلت أنها على فراش الموت، وأن الجميع حولها، وأن ذلك الغائب عاد من غيبته، يحمل في يده ورودا بيضاء، ترى نفسها مكفنة تحمل على الأعناق، هل كانت تشتاق للعناق؟ تسمع أصوات الأهل والأحباب هل عادوا من الغياب؟

دخلت غرفتها صامتة، وصورة الموت حولها فأغلقت كل النوافذ، أرادت أن تهرب أو تختبئ في عالم الأموات، أخرجت من حقيبتها أقراص حفظ الغلال. تعرف قمر أن هذه الأقراص مميتة؛ لكنها ممسكة بها في يدها، ترتجف كل قطعة في جسدها، ترفع قمر الأقراص على فمها، لكن عيونها تبكي تتوسل إليها أن لا تفعلها أن تنتظر بعض الوقت، ربما أحدهم يسأل عنها، ربما يعود ذلك الغائب، ربما تفوض روحها في سلام، ويرفض فمها أن ينفتح، وتتأرجح يدها ما بين الأعلى والأسفل، فيصرخ قلبها أنا

قررت إنهاء ألمي وأن أسدل ستارة النهاية، لن يعود أحد ولن يسأل عنك شخص، عندما نموت سيكون الجميع هنا حولك، ستشاهدين الجميع، سيحضن الجميع قلبك المريض، ترتفع اليد إلى الفم مرة أخرى لكن العقل يجيبه النهاية ستكون في النار، عليك أن تكون عاقل وترحم ضعفها أيها القلب المقتول من الدنيا نحن نريد أن نعيش، عليك أن تكون صابرا لقضاء الله وقدره، ثم يصدر العقل الأوامر لليد فتنخفض، وأن تسقط تلك الأقراص على الأرض، فتتبعثر في كل مكان، فقمر من حقها أن تعيش وتسعد ولو بعد حين.

يصمت القلب فهو لم يعد يشعر بالألم، تنام قمر تلك الليلة على سريرها في حالة إعياء شديد، فما بين مرضها والموت لا فرق كبير، لكنها راضية عن تراجعها لفكرة الموت وأنها تستحق الحياة، تغلق عينيها لتنام، فتشعر أن أحدهم شقها نصفين، وسرق منها تلك الروح المعذبة، شعرت أنها تنام بسلام هذه الليلة، لن تبكي عينيها مرة ثانية، حتى قلبها توقف عن البوح والألم. الغريب أن من حولها شاهد الأقراص المبعثرة فظن أنها حالة انتحار، وأن

جثتها في المشرحة الآن؛ حتى الغائب عاد يبكي؛ فهو يعلـم أنها ماتت قبل أن يتركها لكـن ليس انتحارا...

****

جميع حقوق النشر الورقي
و الإلكتروني محفوظة للكاتب

ديوان العرب
للنشر والتوزيع